العددان الثالث والرابع

« السنة العاشرة »

(ذي‌الحجة : ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — يناير : ابريل سنة ١٩٤٤)

صحيفة دار العلوم

١٩٣٤

تصدرها « جماعة دار العلوم »

كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير	المدير
محمد علي مصطفى	محمد نجيب حتاتة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوي

في القطر المصري	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر السياسة الفارسية

فى توجيه السياسة العباسية (١)

للأستاذ محمد احمد برانق

يقول شاعر فارسى مستعرب :

وما زلنا نحج البيت قدما ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشاربينا

فساسان وهو رأس ملوك الفرس الثانية ، أو ملوك الطبقة الخامسة ، كما يذكر المؤرخون ، حج قبل الإسلام بقرون إلى البيت العتيق ، وطاف به وزمزم عند بئر إسماعيل ، كما قال شاعر جاهلى :

زمزمت الفرس على زمزم وذاك فى سالفها الأقدم

وإذا كان ساسان فعل ذلك ، والشعب كان على دينه ، فالشعب فعل ذلك أيضا.

إذن : كان بين الفرس والعرب اتصال قديم

والحق أننا نتجنى على العرب كل التجنى حين نقف عند ماندرس تاريخهم فى الحد الذى نعرف منه أنهم شعب عاش داخل حدود جزيرته التى أكثرها جدب ولم يخرج منها إلا قريش فى رحلتها إلى الشام حينا ، وإلى اليمن حينا ، وإلا مناذرة العراق وغساسنة الشام .

الحق أننا نتجنى عليهم حين نقف عند هذا الحد من دراسة تاريخهم . فإن كتب التاريخ القديمة تكاد تكون مجمعة على أن قبائل من العرب جاوزت

---

(١) ألقيت بنادى دار العلوم فى ٣٠ من يونية سنة ١٩٤٣

الفرات ، واجتازت سواد العراق ، وحاربت الفرس مرات ، بل إن قبائل من عبد القيس وغيرها ركبت إليهم البحر وغزتهم ، واستعمرت بلادهم ، وامتزجت بهم ، وجلبت الموالى منهم، وتحكمت فيهم وكان العرب يغلبونهم على مواشيهم ومعايشهم ويكثرون الفساد فى أرضهم ، ويملكون غلتهم ، ولذلك نجد المؤرخين حينما يذكرون ملوك الطوائف الذين حكموا بلاد الفرس يقولون : من فرس وعرب .

وبعض كتب الأنساب العربية تذهب إلى أن العرب والفرس من أصل واحد. وإذا صح هذا فالدم ، والطبع ، والعادة ، والعقل — يقترب بعضها من بعض ، ويألف بعضها بعضا ، وهذا يبعث فى النفوس ميلا يدعو إلى سهولة الاندماج .

وأكثر من هذا أن العرب اليمانية يزعمون أن الضحاك أحد الملوك الفرس الأولى كان منهم ، وكانوا يفخرون بذلك فى شعرهم ، فأبو نواس يقول يفخر على المضرية :

وكان منا الضحاك يعبده الـ خابل (١) والطير فى مساربها

وكان فيما يزعمون ساحرا جبارا طاغية تعبده الإنس والجن . والضحاك هذا هو الذى ذكره أبو تمام فى إحدى قصائده فقال :

قد كان كالضحاك فى سطواته للعالمين وأنت أفريذون

وإذا كان اليمانية من العرب يدعون الضحاك أحد ملوك الطبقة الأولى من الفرس فإن ربيعة بكر بن وائل يدعون منوشهر رأس الطبقة الثانية من ملوك الفرس أيضا لأن قبائل منهم خرجت إلى تلك البلاد وتفرقت فيها ، وأشاعت لغتها القحطانية وحكمت . إلا أن الفرس لم يدم فيهم اضطرابهم ؛ فقد جمع أردشير (٢) ابن بابك كلمتهم ؛ ووضع لهم سياسة ملوكية ، وسياسة دينية ، ضمنت لهم ملكا دام لهم إلى أن فتح الله للمسلمين بلادهم . وظل الساسانيون على اتصال بالعرب إلا أنه اتصال ظهرت فيه قوتهم . فحافظوا على بلادهم . وبسطوا سلطانهم على بلاد العراق والحيرة

من هذا يتضح أن الاتصال بين الفرس والعرب قديم. ومتصل فى أى لون من ألوانه

(١) الخابل : الجن

(٢) براء مهملة كما حققها المرحوم زكي باشا

وعلى أى حالة من حالاته : فالعرب يغزون ويملكون . والفرس من بعد ذلك يحاربون ويسيطرون ، ويهاجر العرب أفرادا وجماعات إلى بلادالفرس ، ويتصلون بملوكهم ، ويعملون فى بلاطهم ، ويستشارون فيشيرون . كما يهاجر الفرس أفرادا وجماعات إلى بلاد العرب . ويتصلون بزعمائهم ورؤساء قبائلهم . حتى إن بعضهم كانوا يرسلون أولياءعهودهم إلى بلادالعرب ليتربوا تربيةخشنة . فيعيشون ويتفصحون وينظمون الشعر .

إذا صح هذا كله أو بعضه سلمنا أن العرب تأثروا بالفرس ، ولا سيما زمن بنى ساسان حيث كانت دولتهم فسيحة متباعدة الأطراف ، ممتدة من شمال العراق إلى أرمينية (١) ، ومن بحر أذربيجان (٢) إلى خراسان (فتدخل فيها الكوخ وهمذان وأذربيجان وجرجان وخراسان ونيسابور وخوارزم وبخارى وسمرقند وفرغانه وسجستان وفارس الحالية والأهواز وأصبهان وغيرها) . وحيث كان ذلك الشعب يتكلم بلسان واحد لا يختلف إلا بما نسميه اللهجات.وحيث اشتهرت ملوكها برجاحة الاحلام ، فحسنت السياسة ، وجاد التدبير ، فبعد الصيت .

هؤلاء القوم عرفنا عنهم أنهم كانوا أهل أدب وحكمة جرت على ألسنتهم الامثال العالية والقصص الحكيمة بعضها لهم ، وبعضها أخذوه من جيرانهم الهنود . عرفنا عنهم ذلك ولقناه تلاميذنا فى المدارس . ولكنا ظلمناهم ، وتجنينا عليهم حينما أغفلنا أنهم عنوا بصناعة الطب وعرفوا أحكام النجوم،وكانت لهم أرصاد قديمة للكواكب ومذاهب فى حركاتهم المختلفة ، وكانت كتبهم عمدة أبى معشر : جعفر بن محمد البلخى فألف عليها زيجه الكبير ، واعترف لهم بالفضل .

* * *

إذن كان هناك اتصال وامتزاج وتأثر ، فلما جاء الإسلام ، وكان بعض الفرس

(١) بكسر أوله ويفتح ، وسكون ثانيه وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة والنسبة إليها أرمنى على غير قياس (معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٣) .

(٢) بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم . وفيها أوجه أخرى (معجم البلدان ج ١ ص ١٥٩) .

منبثين فى بلاد العرب فى صورة الموالى أو غيرهم — عرفوا الدين الجديد ، ودخل فيه بعضهم راضيا طائعا من غير إكراه بل لقد لقى نفر منهم عنتا كثيرا من كفار العرب ليصدوهم عن الدين الجديد ، وعذبوا فى الله ، فاستعذبوا أن يعذبوا فى الله وحاولوا أن يفتنوهم عن دين الله فاستمسكوا به ، واعتصموا بحبـله وهان عليهم التعذيب فى سبيل الله ، وكلنا نعرف زيد بن حارثة وأسامه بن زيد وأبا عبد الله سلمان الفارسى الأصبهانى المسلم الأول ورائد العرب وداعيتهم أيام القادسية .

من هذا نعلم أن الفرس اتصلوا بالإسلام منذ فجر الإسلام وعرفهم محمد وأصحابه ودينه فى المهد فأعزوهم وقدموهم وأغزوهم وسودوهم وأمروهم فكان لهم شأن أى شأن وكان ذلك مغريا غيرهم على الاتصال بالدين الجديد الذى فتح ذراعيه لهم وحببه إليهم تعاليمه السمحة وحكمة صاحبه وحسن الأسوة فى خلفائه الذين ساروا على نهجه .

ولم يكن هؤلاء الفرس الذين كانوا منتثرين فى بلاد الحجاز ؛ هم الذين دخلوا الإسلام فى أول أمره فحسب، بل إن المؤرخين يذكرون أن باذان حاكم اليمن لكسرى أسلم وأسلم معه أبناء من فارس حينما قتل كسرى وتولى بعده ابنه شيرويه .

ولما كان أبو بكر أرسل خالد بن الوليد إلى بلاد الفرس مبتدئا بالعراق وأمره أن يتألف أهل فارس ومن فى ملكهم من الأمم وأن لا يتعرض لعامتهم وأن يبذل الأمان لفلاحيهم ؛ ففعل .

وهذه سياسة حكيمة رشيدة من أبى بكر ؛ فانه ما منعه من ذلك أن الفرس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم ؛ كما أنه ما نقم من الفرس أن ملكهم كسرى أغلظ لنبيه محمد فى الرد على كتابه واستهان به وعجب من جرأته على مخاطبة ملك الملوك ودعوته إياه ليدخله فى دينه . ما نقم أبو بكر من الفرس أن يكون منهم هذا لنبيه ولكنه رأى أنهم شعب قوى له ماض وله حاضر فيه سياسة وحكمة وعلم له أخاء وله جوار ومن رجاله من أسلم وحسن إسلامه من غير تألف ولا إغراء . فقد يكون من بقية الشعب من يسلم ويحسن إسلامه ويكون فيه خير للأمة الإسلامية الناشئة بالرغم من أنه يعلم أن أرضهم أرض مكر وخديعة وخيانة وبالرغم من أنه

يعلم أنهم قوم تجرءوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه . ألا ترى أن هذه السياسة جعلت أعيان أهل الحيرة ينادون المسلمين يوم فرات بادقلى ويعلنون أنهم قبلوا مهادنتهم وصالحوهم على الجزية واستقاموا لهم فتبعهم الدهاقين . واستولوا فى بعض الوقائع على النرسيان (وهو تمر يحميه الملوك ولا يأكله أحد غيرهم أو من يكرمونه بشىء منه) . وأطعموه العامة بعد أن كان مطاعم الملوك لا يذوقه أحد غيرهم.

ثم كان ما كان بينهم وبين المسلمين من حروب ظلت زمانا ، وانتهت بفتح بلادهم جميعا ، ودخول كثير منهم فى دين الله ، وأمر العرب بالانسياح فى بلادهم ، فانساحوا فيها . إلا أن العجم بالرغم من دخولهم فى الاسلام ، وانضمام بلادهم إلى الأمبراطورية الاسلامية . كانت فى أكثرهم عصبية لجنسهم ودينهم ولغتهم ، وهذه العصبية كانوا يخفونها على الناس وإن أظهرها بعضهم لبعض خفية ، ومن وراء حجاب حتى لا يظهر العرب على ما فى نفوسهم ، فيتغيروا منهم ويتغيروا عليهم ، وقد يكون فى ذلك إيذاء لهم ، فلا عجب إذن إذا عرفت أن العجم كان يستروح بعضهم إلى بعض فى المدن التى يقيمون فيها حتى المدينة قاعدة الخلافة ومقر السلطان ولا يمنعهم من ذلك أنهم كانوا تحت عين الخليفة وأعوانه بل كان منهم من يستروح إلى أخيه الفارسى وهو فى الوقت نفسه يد من أيدى الخليفة التى تدبر شئون الملك ، وتشير على صاحب السلطان ؛ لأنهم سيجدون من الخليفة قلبا رحيما ، وصدرا رحيبا ، يتسع لهم إذا أخطأوا ، ويرشدهم بالنصح الكريم ، ويدفع عنهم إذا أوذا ، وينتقم لهم من المعتدين ، ألا ترى أن عمر رضى الله عنه قتل نتيجة لمؤامرة سياسية كونتها العصبية الحمقاء . وكان أبو لؤلؤة مخلب القط من رجال المؤامرة . فلما قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان رأس العصبة . أداله منه عثمان . ومكن لابن الهرمزان من قتل عبيد الله وكاد يقع القتل لولا أن العفو سبق .

* * *

هذا الاتصال بين العرب والفرس صار على مر السنين اندماجا أو شبه اندماج . واختلط الدم الفارسى بالدم العربى بالتزاوج . وشاع هذا بين الخاصة والعامة . بل إن بعض الخاصة كانوا يفخرون بذلك . فيزيد بن الوليد بن عبد الملك بن

مروان أمه فارسية كسروية . وجدته لأمه رومية قيصرية . وأمها تركية خاقانية . فبعد أن كان العرب يعيرون أخاهم بأنه هجين النسب أصبحوا يفخرون بذلك . فيقول يزيد بن الوليد هذا .

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

من هذا يتضح أن العناية بصفاء الدم العربى ونقائه من الدماء الأخرى ضعفت فى العرب عامتهم وخاصتهم . وأصبح الخاصة لا يعنيهم إلا التنازع على السلطان . ومحاولة الوصول إلى الخلافة بأى طريق وبأى وسيلة . ولو كان فى ذلك إرغام العرب وإذلالهم لأنه إذا تعدد الطالبون . وتزاحم الوراد على المنهل الواحد الذى لا يسق ماؤه إلا شخصا واحدا . تطلعت الأنظار إليه وتدافع الناس من حوله . فلا يصل اليه إلا أقواهم قوة وأوسعهم حيلة . وأعظمهم وسيلة وأقربهم مأخذا . وأعمهم مسلكا وأجرؤهم . وأشدهم اندفاعا . وأبعدهم عن التزمت . وأنآهم عن التحفظ . وأدناهم من المنهل .

وهذه خلافة واحدة ذات سلطان واحد . تطلعت اليها أنظار الناس بعد أن كان السابقون الأولون فيها زهادا . فحاولها كل لنفسه . وأقام الحجج والبراهين على أنه أولى الناس بها . فيسمع له قوم وينفر منه آخرون ثم يخرجون من التقارع باللسان والتدافع بالبيان إلى تفويق السهام . وإشراع الرماح . وانتضاء السيوف . وإراقة الدماء . وإهدار النفوس . لا يرعون لله عهدا . ولا للدين حرمة . فلم تعد المسألة مسألة دين . ولا عرب ولا عجم . وإنما هو ملك يشاد على أنقاض ملك . وخلافة تقام على أشلاء خلافة : فالأمويون والطالبيون والعباسيون والزبيريون والخوارج كل فريق من هؤلاء يطلبونها لأنفسهم . ثم يختلف كل قبيل منهم على نفسه . وهكذا صارت الخلافة غاية يطمع الناس فى الوصول اليها حتى من كان لا تحدثه نفسه فى حلم ولا يقظة أنه يكون من خطابها . فقد صار من عشاقها وسلك السبيل اليها .

* * *

فلما تطلع العباسيون إلى الخلافة بدأ ذلك محمد بن على بن عبد الله بن عباس

سنة مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز ، فنظر محمد فيما حوله ، فلم يجد إقليما أصلح له من خراسان ينشر فيه دعوته ، فبعث النقباء يدعون له سرا ، فبايعه الشيعة لأن نقباءه أفهموهم أن عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى له بالخلافة قبل موته ، فكثر الأتباع لكثرة الدعاة ، ولما مات محمد بن علي كانت الدعوة من بعده لابنه إبراهيم الامام الذى اختار خادمه ومولاه أبا مسلم الخراسانى لإظهار الدعوة فى خراسان ، وادعى أنه من أهل البيت ليكون مسموع الكلمة ، والحق أنه ليس له صلة قريبة أو بعيدة بأهل البيت ، وإنما هو شاب حدث فيه شهامة وصرامة وقوة فهم ، وجودة رأى ، وحدة ذهن ، وإذا رأى المولى أن سيده يعتمد عليه فى المهم من أمره ، ويكل اليه شيئا خطيرا ، إذا نجح فيه ، خرج من دائرة الموالى إلى محيط الناس العالميين — إذا رأى المولى هذا عقد العزم على النجاح ، وإذا ساعدته صفات طبيعية وهبها الله له كان نجاحه فى حكم المحقق . لهذا كان ابراهيم الامام مصيبا حينما اعتمد على أبى مسلم ، ولكنه نسى أنه عربى مضرى قرشى هاشمى عباسى ، أى من صميم العرب ومن أقربهم قرابة إلى النبى . نسى هذا وقال لأبى مسلم : (انزل فى أهل اليمن وأكرمهم ، فإن بهم يتم الأمر ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فهم العدو القريب ، واقتل من شككت فيه ، وان قدرت أن لاتدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله) . تصريح خطير من ابراهيم الامام ، نفهم منه أنه لايعنيه إلا شىء واحد هو أن يلى أمر هذه الأمة بالحق أو بالباطل ، ولذلك ينفر داعيته من مضر لأنه يعرف أن بنى أمية تألفوا المضريين فهم لايجيبونه إلى دعوة ، ويحضه على أن يتألف أهل اليمن لأنهم لا يحبون الأمويين وإن كانوا هم الذين أقاموا دولتهم ولأنه يعلم أن أهل اليمن يودون لو وجدوا ملجأ يلجأون اليه ليحميهم من الأمويين ، ثم يصرح بما هو أشد من ذلك وأنكى ، وهو أنه إذا استطاع أن لايدع بخراسان رجلا واحدا يتكلم العربية فليفعل وهذا إغراء لرجل أعجمى أن يتحرش بالعرب ، ويؤذيهم ، وأن يضع السيف فى رقابهم . إذن هو ملك أيا كان ذلك الملك ، ووصول اليه من أى طريق ، وعلى أى وجه ، وليست المسألة مسألة أموى وهاشمى ، أو طالبى وعباسى ، أو شىء من هذا .

* * *

فطن العرب إلى هذا ، وبخاصة عرب خراسان الذين بدأت تظهر الدعوة بينهم ، فتعاقدت طوائف منهم على حرب أبى مسلم ومقاتلته ، ولكنهم لاقبل لهم بمقاومته ففشا أمره ، وكثر أتباعه ، وسارت دعوته سيرا حثيثا ؛ لأن الناس فى خراسان ضايقهم عمال بنى أمية ، ولأن الدعوة بدىء بها قبل ذلك ، وغرست بذورها منذ ثلاثين عاما ، ولأن اليمنيين كانوا منتشرين فى تلك البقاع، ولأن بنى هشام بن عبد الملك ناوءوا مروان وعماله ، ولأن أبا مسلم كانت فيه صفات خاصة تجعله مرغوبا فيه ، مرهوبا منه ، ولأن أبا حمزة الخارجى انتقض على مروان ، ودخل المدينة وتأمر عليها ، ولأن حربا شعواء ، قامت بين نصر بن سيار والى خراسان، وابن الكرمانى، فشغلت نصرا عن أبى مسلم بعض الشىء ، كما أن حربا أخرى قامت بين نصر هذا وبين شيبان بن عبد العزيز الخارجى ولأن ابن الكرمانى صالح أبا مسلم واتفق معه على محاربة نصر ، وزاد جند أبى مسلم ، وعظم جيشه ، وصار له حرس ، وشرط ورسائل وديوان وعمال وقضاة وقصاص وغير ذلك مما يحتاج اليه الملك .

يبين لنا سرعة انتشار هذه الدعوة وخطرها ما أرسله نصر بن سيار حاكم خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لمروان بن محمد ، وقد أفزعه انتشار أمر أبى مسلم ، وهو قوله :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تحققت أن لاخير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها بيضا إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
وإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب

إذن صدق نصر بن سيار ، يزيد بن عمر ، بما كان من أمر أبى مسلم ، واعترف له بأن الأمر جد خطير ، وبأن بيض الفتنة أفرخ وأوشك أن يريش، فاذا ترك حتى يريش أشعل نار حرب يعز عليهم إخمادها ، وقد كان ما توقعه نصر ، فان الفراخ راشت ، ونهضت طائرة وعز عليهم أن يهيضوا جناحها أو يحصوا ريشها ، فان أمر أبى مسلم انتشر واستفحل ، والتف العسكر عليه ، وفر نصر بن سيار ثم قتل ، وقتل شيبان الخارجي ، موادعه وحليفه وعمانه على أبى مسلم ، ولما تم له ذلك غدر

بابن الكرمانى ، وقتل ولديه ، ثم قتله هو ، وبعث البعوث إلى الأطراف ، يقودها قحطبة بن شبيب ، وخالدبن برمك ، وأبو سلمة الخلال ، وكلهم أعاجم فكتب الله لهم جميعا النصر .

* * *

أما ابراهيم الإمام الذى يدعون له ويحملون الراية باسمه ، فانه وقع فى يد مروان بن محمد فسجنه ، حتى مات أو قتل سنة ١٣٢ . ولكنه كان أوصى بالأمر من بعده لأخيه أبى العباس السفاح

إلى أن مات ابراهيم الإمام أو قتل كان الدعاة له يظهرون أنهم إنما يعملون فى ظل دعوة عباسية إلا أن أحد النقباء الذين كان لهم يد قوية فى الدعوة أراد أن يوجهها وجهة أخرى ، ذلك هو أبو سلمة الخلال ، ولعله رأى أن أبا مسلم ظهر عليه ، فاذا استقام الأمر لبنى العباس كان هو صاحب الخطوة من دونه فرأى أن يحولها إلى مجرى جديد يكون هو صاحب اليد عليه ، فنادى بها طالبية ، ولكنه اضطرب فى أمره ، ولم يحولها إلى طالبى بذاته ، فبعث إليهم الواحد بعد الآخر يعرضها عليهم فرفضها بعضهم ، وشك فيه بعضهم ، ورضى عنهم بعضهم ولكن بعد فوات الفرصة ، فان بقية الدعاة مدوا يدهم إلى السفاح ، فلما رأى ذلك أبو سلمة انفلت من الطالبى ، وسحب منه يده ، وقدمها إلى السفاح قبل أيدى الدعاة جميعا .

هذه المخادعة والمخاتلة التى بدرت من أبى سلمة كانت وجهة السياسة الفارسية فى عصورها المختلفة .

* * *

نلاحظ هنا أن السفاح خطب فى اليوم الذى بويع له فيه على منبر الكوفة ، ولم يشد بذكر واحد من هؤلاء الدعاة الذين ناهضوا الأعداء ، وقدموا أنفسهم ليكونوا له دولة ، ثم تلاه عمه داود بن على ، ولم يفعل أيضا . وان أول عمل بدأ به حياته فى الخلافة أنه أرسل رجالا من أهل بيته إلى أكثر المحاربين من الدعاة ، يلزمونهم ويحاربون معهم ، كما أرسل عمه عبد الله بن على لمحاربة مروان ، ولم يرسل واحدا من الدعاة أو النقباء على حد تعبيرهم .

فهل كان السفاح يعتبر عمل الدعاة أمرا توجبه عليهم صلتهم بالعباسيين صلة ولاء وأنهم كانوا ينظرون اليهم نظر السيد للمسود ، أو أنه كان يشك فى إخلاصهم له ، ويرتاب فى أمرهم معه.وزاده شكا فيهم ، وارتيابا منهم ما عرفه من أمرأبى سلمة الذى أراد أن يجعلها طالبية بعد موت ابراهيم الإمام لحاجة فى نفسه ؟ . وأيا كان الأمر فانه كان يجب على السفاح أن يذكر فضل هؤلاء الناس عليه وعلى اهل بيته ، إعترافا منه بالجميل ، وتشجيعا لهم على المضى فيما هم بسبيله حتى تثبت قواعد الملك ، وإزالة لما عسى ان يكون فى نفوس بعضهم من شك فى نكران الجميل حتى لا يعود إلى ابى سلمة شيطانه ، او حتى لا يظهر شيطان آخر كشيطان ابى سلمة ، وحتى لا يجدوا فى انفسهم ، من انه بعد البيعة مباشرة ارسل إخوته ، واعمامه وبنى اعمامه إلى الأطراف للعمل بجانب الدعاة الأول الذين كانوا يعرضون انفسهم للموت من اجلهم ، وهم هادئون وادعون ينعمون بطيب العيش ، ولا يعرفون ما يجرى من حولهم .

ومع ذلك فانه ساس الأمور سياسة حكيمة حازمة ، تجعله ينتفع بهم ، ويتقى شرهم إن كان لهم شر . ومن كان فى مثل مكانه وجب عليه ان يأخذ امره بالحذر ، فانه ولى على الولايات اقاربه ، ولم يول احدا منهم غير ابى مسلم ، فقدولاه خراسان اما خالد بن برمك ، فانه عمل فى ديوان الخراج ، فلا شأن له بالولايات ، واما ابو سلمة ، فانه استوزره إلى حين .

لأن الموجدة التى وقرت فى صدره منه حين حاول أن يجعلهاطالبية ، لم تزل من نفسه بل نمت ، حتى أحفظته عليه وأراد قتله بالرغم من أنه كان يأنس به ، ويحب مجالسته لطيب محاضرته ولكن من معينه على ذلك ؟ هو أبو مسلم ، قرن أبى سلمة ، وأخوه فى الجنس ، ومنافسه فى الدولة ومحاول صرف الخلافة عن أهلها ليظفر وحده بسلطانها ، لذلك لايكاد أبو مسلم يستشار فى هذا الأمر ، حتى يبعث إلى الهاشمية من يقتل أبا سلمة بليل ، فيخبط الناس فيمن قتل ، ولأى سبب قتل ، ولا يهتدون . وبذلك يريح الله الخلافة من كيد أبى سلمة ، ويريح أبا مسلم من منافسة أبى سلمة .

إلا أن أبا مسلم نسي أن النظر سيتحول إليه ، وأن التهمة ستتركز فيه ، وأنه بعد

أن كان يخشى العباسيون بأس رجلين أصبحوا يخشون بأس رجل واحد ، فكاد يهون عليهم الخطب لولا أن الرجل فى سلطان عظيم ، وحوله جند كثير ، ويتمتع بهيبة العرب والعجم ، الأولون عليه حانقون والآخرون عنه راضون ، فلا بد أن يساس وأن يصانع ، وأن يتريث له حتى تمكن منه الفرصة فتصدق الوثبة ؛ لذلك لم يتعجلها السفاح ، وسمع قول المنصور له : « لست بخليفة مادام أبو مسلم حيا حتى تقتله » ؛ فتململ وأمره أن يكتم ذلك فى نفسه حتى يهيء الله لهم الأمر ، وظل به يصانعه ويداوره ، ويستشيره ، ولا يبرم أمراً من دونه ، فهو يشير بقتل ابن هبيرة فيقتل رغم أنف المنصور ، ويرتاب فى عمال أبى سلمة ، فيأمر بقتلهم جميعا ، فيقتلون ثم هو يقدم على الخليفة من خراسان فى ثمانية آلاف ، ولم يجر بذلك تقليد من قبل ، فيوعز الخليفة إلى الأمراء والقواد ليخرجوا لاستقباله وتلقيه من مسافات بعيدة ، ثم يكرمه ويعظمه ويحترمه حين يدخل عليه ، وينزله قريبا منه ، ويحضره الى مجلس الخلافة كل يوم ، ويتمنى أن لو كان عينه أميرا على الحج مكان أخيه أبى جعفر . فعل السفاح ذلك كله مع أبى مسلم . وفى نفسه مافيها من الموجدة عليه ، ولكن لا بد من المصانعة .

فلما خرج السفاح من دنياه سنة ١٣٦ ، وكان المنصور على الحج أقبل عليه أبو مسلم يعزيه فيبكى لوفاة أخيه ، ولكن أبا مسلم ظن أنه إنما يبكى لمصاعب الخلافة ومتاعبها وفداحة حملها وأنه يخشى أن ينوء به ، فقال له : فى زهو : اكفيكها إن شاء الله .

اطمأن المنصور بعض الاطمئنان فاعتمد على أبى مسلم فى توجيه السياسة وهو متحقد عليه ، ألا ترى أنه حرض السفاح على قتله ؟ فقال له : قد علمت بلاءه معنا ، وخدمته لنا . فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين : إنما ذلك بدولتنا ، والله لو أرسلت سنورا لسمعوا لها ، وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغد هو بك ؛ فقال السفاح : كيف السبيل إلى ذلك ؟... إلى آخر ماترويه كتب التاريخ ، وهو يدلنا على أن السفاح والمنصور كليهما ودا لو أمكنهما الخلاص ، ولكن لاسبيل لأنه هو الذى يأخذ لهما البيعة من الناس ، ويخرج لقتال عبد الله بن على ، عم المنصور ، ومدعى الخلافة لنفسه فى أهل الشام ، فيهزمه ، ويستوسق الممالك لأبى جعفر ، حتى تم له من

ذلك ماأراد . ومع ذلك فإنه بدأ يتنكر له ويتهمه فأراد أولا أن يصرفه عن خراسان ، ويوليه الشام ومصر جميعا . فرفض ذلك أبو مسلم ، وأبى أن يترك خراسان لأنها له ، ولا بأس أن تكون معها مصر والشام ، يستخلف عليهما من يشاء ، وكتب إلى المنصور: إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة ، فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضنا بنفسى عن مقامات الذل والاهانة .

انكشفت الحقيقة ، وظهر كل منهما لصاحبه ، وأبدى له خبيئة نفسه ، فالخليفة يريد أن يغدر إبقاء لملكه ، وإن كان فى الغدر نكران للجميل . وذلك يريدان ينتقض عليه إبقاء على حياته ، وحرصا على كرامته ، وبعد ابها عن مواطن المهانة والذلة ، فلا عليه إذا نابذ وخالف .

أعمل المنصور الحيلة فى استقدامه اليه ، واستعان عليه ببعض خاصته ، كأبى أيوب وغيره فاحتالوا لذلك ، وماكروه ، وخادعوه ، حتى تأثر أبو مسلم بحيلهم ، وانخدع بأباطيلهم ، وقدم إلى المنصور حيث قتل ، لأنه قدم نفسه فى طريق الحج على المنصور ولأنه إذا كاتبه بدأ بنفسه ، ولأنه تجرأ ، فخطب عمته آمنة بنت على ، ولأنه ادعى أنه عباسى النسب ، ولأنه راغمه ، ودخل خراسان مع أنه ولاه الشام ومصر دون خراسان ، ولأنه قتل سليمان بن كثير أحد الدعاة العباسيين ، ولغير ذلك من الأسباب الكثيرة التى ذكرها له المنصور إن صدقا ، وإن كذبا .

أفلا كان يستطيع أبو مسلم أن يدفع عن نفسه ، إنه كان بمنزلة بين الناس بحيث لو سمع كلام صديقه بترك ، فقتل المنصور بمجرد دخوله عليه ، وبايع عباسيا غيره لنجح ، وأطاع الناس ، لأنه كان واضعا يده على كل شىء ، وأنفه فى كل شىء ، فأيهما يسبق إلى قتل صاحبه ، يصير له الأمر ، وقديما قالوا : إذا كان الوزير

يساوى الملك فى المال والهيبة والطاعة من الناس ، فليصرعه الملك ، فإن لم يفعل فليعلم أنه المصروع .

فما كان حدثا عاديا أن يقتل أبو مسلم ، ولكنه أمر له ما بعده ، وقدر المنصور ذلك فشرع فى تأليف أصحابه بالأعطية والولايات والرغبة والرهبة ، وجهر لبعض أصحابه بما كان يزعجه منه ، فقال : وهل كان لكم مكان أو سلطان ، أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ ومع ذلك فقد خرج فى تلك السنة ناس من الأعاجم على الخليفة وطلبوا بدمه ، إلا أن الله نصر الخليفة ، وقتل منهم ستين ألفا ، كما خرجت الراوندية وأصلهم من خراسان ، وعلى رأى أبى مسلم فحصدهم المنصور ، وأيا كان الأمر فإن قتل أبى مسلم أتعب المنصور ، وأرقه سنوات .

* * *

من هذا يتضح أنه وإن كان أبو مسلم وأبو سلمة على رأس الدعاة ، فهما اللذان أقاما هذه الدولة ، إلا أنهما لم يكن لهما أثر فى توجيه سياستها فى أى ناحية من نواحيها لأن السيف تعجل رأسيهما قبل أن يغرسا بذرة للسياسة العامة فى الدولة ، فالأول قضى عليه بعد بضعة شهور من مبايعة السفاح ، والثانى قضى عليه بعد بضع سنين من قيام الدولة ، كان فى أثنائها موضع الريبة والتهمة ، محوطا بسياج من المداراة والمصانعة ، مشغولا عن النظر فيما حوله بما خيل إليه من عز السلطان وبنشوة النصر والظفر والقدرة على تأسيس ملك عريض بعد أن كان مولى مغمورا .

وليس معنى هذا أن الأعاجم انزووا انزواء فى هذا العصر ، ولم تكن لهم إصبع فى تسيير سفينة الدولة . فقد كان لغيرهم من الذين اطمأن إليهم السفاح أولا والمنصور ثانيا — رأى : يستشارون ، فيشيرون ، ويستقضون ، فيقضون ، ويستفتون فيفتون . إلا أن هؤلاء كانوا قلة ، فلم يتضح أثرهم ، ولم يكن لهم منهج خاص سياسى ، أو غير سياسى ، وكل همهم التقرب إلى الخليفة ، وإعانته على غيره بالرأى والمشورة ، وإن خالف ذلك مصلحة إخوانهم من الفرس ، بل وإن كان فى ذلك تضحية بهم .

وإذا شئنا أن نحصى هؤلاء ، وجدناهم لا يعدون خالد بن برمك ، وكان من النقباء ، وأبا أيوب الموريانى ، صديق المنصور المخلص لدولته . ويظهر أن خالدا كان أحذق النقباء جميعا ، فإنه كان رابع أربعة من الأعاجم ، قتل واحد منهم فى الميدان ، ثم قتل اثنان آخران : أحدهما بيد السفاح ، والآخر بيد المنصور . أما خالد ، فإنه عاش ما عاش فى قصور الخلفاء حتى كان لابنه وأحفاده شأن اى شأن فيما بعد ، واما أبو ايوب فقد اعتبره المنصور ذا مروءة ، يشكى إليه إذا حزب الأمر على حد قولهم .

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وكان رأيه يعجب المنصور ، فيعمل به ، ويجنى ثمرته ، وله فى ذلك أمور وأمور ، ليس هذا موضع تفصيلها .

فلما تأسس الملك ، واطمأن المنصور على دولته ، وعرف من حوله من العرب والعجم ، إنه رجل له بأس شديد ، وفيه صولة ، هابوه ، وحذروه ، وتقربوا اليه وتملقوه ، ومحضوه النصح ؛ فاطمأن اليهم ، ولكن يظهر ان العجم كانوا فى هذا الباب ابرع من العرب ، لأنهم دخلاء على الدولة ، وان كان مؤسسوها منهم ، فهم فى حاجة إلى استرضاء صاحب السلطان . والعرب هم اصحاب الدولة ، فهم اعظم من ان يتزاحموا على عتبات الخلافة تزاحم الأعاجم ، إلا ان هذا اضر بهم كثيرا ، لأنه شل يدهم ، فأصبحوا غرباء عن دولتهم . ولعل الذى ساعد العجم على بسط ايديهم فى قصور الخلفاء هو انهم قوم كانت لهم حضارة قديمة ، وسياسة موروثة ، يعرفونها ويحذقونها ، ويجيدون معاشرة الملوك ، والعيش فى خدمتهم ، والسير فى ركابهم ـ الشىء الذى جعل الخلفاء يطمئنون اليهم ، ويفتحون لهم آذانهم ، ويفضلونهم على من سواهم . لذلك قرب المنصور ابا ايوب ، وخالدا البرمكى ، والربيع بن يونس وغيرهم ، فساسوا له الدولة سياسة فارسية فى جوهرها وعرضها ، فى ظاهرها وباطنها فنظموا الدواوين على حدود فارسية ، وبنوا بغداد على وضع فارسى ، واتخذ الخليفة القصور ، وشدد فى لبس السواد ، وامر الناس بلبس قلانس فارسية سود طوال جدا ، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب ، فقال فى ذلك ابو دلامة الشاعر :

وكنا نرجى من إمام زيادة فزاد الامام المرتجى فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

وكان مع تأثره بهذه السياسة لا يفلت واحد منهم إذا غضب ، ولا يرحمه ، فهو يغضب على أبى أيوب كاتم سره ، وموضع شكواه ، فيأخذ كل أمواله ، ويقتله ، ويغضب على خالد بن برمك ، فيلزمه أموالا عظيمة ، ويهدر دمه إن لم يسددها ، وهكذا كانت معاملته لأعوانه من الأعاجم من الأعاجم معاملة الملك المرتاب الذى يرضى فيسمع ويطيع ، ويغضب فيستصفى المال ، ويقتل الأصفياء ، ويسجن البرآء ، ومع ذلك فان المنصور وغيره من الخلفاء لم يعدموا أعوانا مخلصين من الأعاجم .

* * *

فها هو ذا الربيع بن يونس يأخذ البيعة للمهدى ، ويزر له ، ويصرف شئون الرعية ولكن يظهر أن المهدى كان فى نفسه شىء من الأعاجم فأراد أن يحتاط ، وكان من مظاهر ذلك أنه خرج إلى الحجاز فى حج ، فلما دخل المدينة ، انتخب خمسمائة عربى من أعيان أهلها ، ليكونوا حوله حرسا بالعراق وأنصارا ، وأجرى عليهم أرزاقا غير أعطياتهم ، وأقطعهم أقطاعا معروفة بهم ، وهذا عمل له مغزاه ومرماه إلا أن هذا لم يمنعه من أن يكون وزراؤه أبا عبيد الله معاوية الطبرانى ، ثم يعقوب بن داود ولم يمنعه أن يحجب له الربيع بن يونس وابنه الفضل . ثم يأتى الهادى ، فيقر أعوان أبيه الأعاجم على ما كانوا عليه من وزارة وحجابة وكتابة وقيادة وعمالة حتى الربيع مع أنه كان هم بتغيير ولاية العهد ، وتقديم الرشيد على أخيه الهادى ، فان الهادى لم يحنق عليه بسبب ذلك ، بل أحضره بين يديه ، وعفا عنه ، وأحسن اليه ، وأقره على حجو بيته ، وزاده الوزارة وولايات أخر . ولما مات حل مكانه ابنه الفضل ، فلما أراد أن يغير بيعة أخيه الرشيد ، ويجعلها فى ابنه جعفر ، لم يستعن على الرشيد إلا بيحيى بن خالد البرمكى ، وكان يحيى صديق الرشيد وصفيه من دون الناس ، فاذا وافق على تغيير البيعة لم يتخلف الرشيد عن رأيه ! ولكن يحيى كان مخلصا فى إسداء النصح

للهادى حيث أشار عليه أن لا يغير البيعة . ومع ذلك جرت على يد الأعاجم وعلى رأسهم الخيزران أم الهادى والرشيد أمور كانت لها خطورتها ، وسابقة لم يقع مثلها من قبل ، فانهم ائتمروا بالهادى من أجل الرشيد ، فدسوا له سما فمات ، ولم يمكث فى الخلافة سوى بضعة أشهر وكانت سنه ثلاثا وعشرين سنة . وأعتقد أنه لولا الأعاجم ، ولولا يحيى البرمكى ، ولولا الخيزران وهى غير عربية لما جرؤ أحد على أن يدس للخليفة السم فى الطعام ، ولاسيما أنه كان مع حداثته ذا بأس وصرامة ، وأنه كان يقول : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجانى ليقل الطمع فيه ، فلعل الأعاجم من حوله لحوا فيه ذلك فظنوا أنه لا يطيب لهم معه عيش ولا تسير لهم سياسة ، ولا يطمئن لهم قلب ، فأعانوا على قتله ، وبخاصة أنهم رأوا منه ما يريب ، فانه سجن يحيى بن خالد ، وكان عزم فى الليلة التى مات فيها على قتل يحيى والرشيد وأمه الخيزران جميعا .

* * *

فلما ولى الرشيد الخلافة جاء بيحيى هذا وهو أبوه رضاعا كما تعلمون ، وقال له : ياأبت . أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى اليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شىء.

فاذا صح هذا ، وهو صحيح فى أكبر الظن ، كان عهد الرشيد فاصلا بين عهدين : عهد مضى كانت السيطرة فيه للخلفاء ، مستمينين بالأعاجم ، متيقظين لهم ، جامعين السلطان فى أيديهم . وعهد أتى ، ترك فيه الأمر لعجمى واحد ، يأمر وينهى ، وينقض ويبرم ، ويولى ويعزل ، ويخلع الخليفة أمر الرعية من عنقه ويضعه فى عنق يحيى ، ويفوضه إليه . فماذا فعل يحيى ؟ حاول أن يجمع الرعية : عربها وعجمها من حوله حتى لا ترتفع منه شكوى ، ولا يدس عليه دساس ، وحتى لا تدبر له المؤامرات ، وحتى لا يتخطاه أحد ، فيعلق أمله بالخليفة من دونه ، ولقد وضع لذلك سياسة حكيمة تعلمها من جده ساسان ، ومن أبيه كسرى أنو شروان ، فبدأ أول ما بدأ بالتقرب

إلى الخيزران أم الرشيد وقاتلة ابنها الهادى ، فلا يقطع أمرا إلا بمشاورتها ، ولا يورد ولا يصدر إلا عن أمرها فكانت تشير فى الأمور كلها فتبرم وتنقض ، ويحيى من ورائها السميع المطيع،وما فعل يحيى ذلك لله وفى الله ، ولكنه رأى أن الخيزران تحب ابنها الرشيد أكثر من إخوته جميعا ، وأنها ضحت بابنها الهادى ، واشتركت فى دس السم له ، حتى لايخرج الأمر من يد الرشيد إلى جعفر ابن الهادى ، ورأى كذلك أنهما اشتركا فى ذلك الجرم الذى قد يغضب ناسا من العرب ؛ فكان يرى من الخير أن لايختلف معها ، فأرضاها بهذه السياسة الكسروية ، حتى يظل الجرم مستورا وحتى يظل السر الذى بينهما مدفونا ، فلا يظهر عليه أحد . وكان له من وراء ذلك سياسة أخرى ، أعجب من هذه وأدهى ؛ فقد عمل هو وابناه الفضل وجعفر على إرضاء الناس جميعا ، لافرق بين عربى وعجمى ، فساسوهم سياسة واحدة ، ترغم الجميع على حبهم والتعلق بهم ، وتجعلهم يعمون عن أى سيئة تقع منهم ، ولو وقعت على رأس الخليفة نفسه ؛ فجلسوا للناس فى كل يوم جلوسا عاما ينظرون فى حوائجهم ، لايحجبون أحدا ، ولا يستترون عن أحد ، وأغدقوا على الحرمين أقطا وسمنا وقمحا وتمرا ، وأجروا على المهاجرين والأنصار ، وعلى وجوه أهل الأمصار ، وعلى رجال الدين ، وعشاق الأدب ، وذوى المروءات ، وأنشئوا الكتاتيب ، يتعلم فيها اليتامى بالمجان ، وتوسطوا عند الرشيد للمغضوب عليهم ، أو لأكثرهم ، وتلطفوا له حتى عفا عنهم ، وأرخت الكتب باسم يحيى ، ولقب بالأمير ، وكان أول من منح أو منح نفسه هذا اللقب من وزراء المسلمين . ولا أحب أن أطيل فى أنه كان من الأسلحة الحادة التى عنى بها فى تثبيت سلطانه ، وتدعيم حكمه — ألسنة الشعراء ، فإن من المعروف المشهور أنه نفحهم بدر المال ، فأطلق ألسنتهم فيه وفى أولاده بالمدح ، وشغلهم عن مدح غيرهم حتى الخليفة نفسه أو كاد ؛ ومدائح الشعراء فيهم ملأت كتب التاريخ والأدب التى تتحدث عن ذلك العصر . وكان يوصى أولاده دائما أن يتخذوا لهم مننا فى أعناق الرجال ، وينصح لهم أن يسترضوا الأشراف دائما ، ويستعينوا بهم ، لأن النعمة عليهم أبقى ، وهى بهم أليق وأحسن ، والمعروف عندهم أشهر ،

والشكر منهم أكثر . وإذا كان فطن إلى مسائل السياسة مع الناس عامتهم وخاصتهم فإنه لم يفته أن يحسن السياسة أيضا مع أهل بيته حتى مع خدمه ؛ ألا ترى أنه رآهم يوما يعبثون ويترامون بالبطيخ ، فطاشت رمية بطيخة من يد خادم ، فأصابت وجهه، فما ثار ، بل ماغضب، بل ماتحرك ؛ فعجب من حوله منه وله ، وودوا لو نهاهم وزجرهم حتى يخافوه ، فلا يجترئون على مثل هذا . فلم يزد على أن قال : اللهم غفرا ، نحن نحب أن نؤمن من بعد عنا ، فكيف نخيف من كان على بساطنا .

بهذه السياسة الحكيمة ملكوا قلوب الناس ، وتمكنوا من قلب الرشيد تمكنا جعله ينسى مكانه منهم ، ومكانهم منه ؛ فهو يقلد جعفرا المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ويقلد الفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك إذ ذاك ؛ فأما جعفر فهو يقيم مع الرشيد فى دار الخلافة ، ويولى عنه عمالا ، وأما الفضل ، فيودعه الرشيد ويسير معه مسافة طويلة ، ناسيا مقام الملك منه ، فاذا عاد إلى العراق لأمر من الأمور يخرج الرشيد لتلقيه كما تتلقى الرعية ملكها ، ويجمع له الناس لاستقباله ، ويأمر الشعراء بمدحه ، والخطباء بذكر فضله ، فيطلق لهم الفضل العطايا ويمنحهم بدر المال .

ولست أدرى : أكان ذلك عن حب مكين فى قلب الرشيد للفضل ، أم أنه عرف مكانته ومكانة أبيه وأخيه من قلوب الناس ، فأراد مداورتهم ومصانعتهم ، حتى يأخذوا البيعة فى الأطراف لولديه الأمين فالمأمون . ولعل الأمر كان فى أوله حبا مكينا ، جعله يلقى إليهم القيادة ويسلم لهم الزمام ، فاستعملوه كأحسن ما يكون لأنفسهم أولا وللأمة ثانيا . فلما عرف تمكنهم من قلوب الرعية جعلهم يأخذون لولديه البيعة ، ففعلوا ولم يتردد فى المبايعة أحد ؛ لأن يحيى وأولاده أرادوا ، فكان لهم ما أرادوا .

وما كان ليحيى وأولاده ما يريدونه من الشعب فحسب ، بل كان لهم ما يريدون من الخليفة ، وإن لم يرد الخليفة ؛ وكانوا يعدون وينجزون على لسان الخليفة من غير أن يكون للخليفة علم بما يفعلون ، ولا يسعه إلا أن يوافقهم على ما يصنعون .

فهذا عبد الملك بن صالح من بيت الخلافة ، يذهب إلى جعفر بن يحي ، ويقول له : إن فى قلب أمير المؤمنين هنة ، فاسأله الرضا ، فيجيبه جعفر ، قد رضى عنك أمير المؤمنين ، فكأن جعفرا ملك قلب أمير المؤمنين ، فيقول له:ارض فيرضى.ويقول له : اسخط فيسخط . ثم قال عبد الملك : على أربعة آلاف درهم تقضى عنى، فيجيبه جعفر : إنها عندى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين . ولأن يملك جيبه أهون من أن يملك قلبه . ثم قال عبد الملك : وإبراهيم ابنى أحب أن أشدظهره بصهر من أولاد الخلافة ، فيجيب جعفر : قد زوجه أمير المؤمنين العالية ، وهذه أشد من الأولى ، والثانية ، لأنه يستطيع أن يدعى عليه أن أمير المؤمنين رضى عنه ويستطيع أن يقدم له الدراهم من ماله ، ويوهمه أنها من مال أمير المؤمنين . أما أنه يقطع برأى فى زواج بنت أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين لا يعلم ، فهذا شىء وراءه ما وراءه . ثم قال عبد الملك : وأحب أن يخفق لواء على رأسه فأجاب جعفر قد ولاه أمير المؤمنين مصر ، وهذه أخف من سابقتها ، لأنه هو الذى يولى ويعزل من غير أن يتدخل أمير المؤمنين .

قد يسبق إلى الظن أن هذه المسائل الأربعة التى طلبها عبد الملك بن صالح من جعفر ، تحدث فيها جعفر قبل ذلك مع الرشيد ، واتفق عليها ، ولكن لا . لم يجر تحدث بشأنها بين جعفر والرشيد قبل الذى جرى بين جعفر وعبد الملك ، فقد كان الحديث فى بيت جعفر ، وأمام بعض أصدقائه الذين أدهشهم أن يقول جعفر ماقال من غير أن يستأذن الخليفة ، وقالوا متهامسين : لعله أن يجاب إلى ما يطلب من الحوائج ، فكيف بالتزويج ، فلما كان الغد ، دخل جعفر على الرشيد وجلساؤه بالأمس واقفون بالباب ينظرون ما يصنع ، فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن حسن ، وابراهيم بن عبد الملك ، ثم خرج إبراهيم وقد خلع عليه وزوج وحملت البدر إلى منزل أبيه وولى مصر .

* * *

تمكن هؤلاء القوم من السلطان ، وصاحب السلطان إلى هذا الحد ، فصيروها

خلافة عربية فى مظهرها ، فارسية فى حقيقتها ومخبرها ، واتبعوا السياسة التى أشرنا إليها من قبل فأحبهم الناس ، ورضوا عنهم ، والتفوا حولهم ، وشرق ذكرهم وغرب وملأ الآفاق . وضؤل بجانبه اسم الخليفة ، فوجد عليهم فى نفسه ، ولكنه كتمها سنين ، وكان بعض المقربين إليه ، وبخاصة العرب منهم ، يعز عليهم أن تصير الدولة برمكية كما يرون ، فيدسون لهم من بعيد ، فبدأ الرشيد يتنبه لنفسه ، وينظر فيما حوله فيجد لهم ولولدهم ضياعا ليس له ولا لولده مثلها ، ويجد الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأقطارهم ومذاهبهم ، يقصدونهم ولا يطرقون باب الخليفة ، ويجد الشعراء والعلماء يذهبون إلى مجالسهم أكثر مما يذهبون إلى مجلس الخليفة ، فتهيج فى نفسه نزعة دينية عربية ، فيرى مجالا للطعن عليه ، فهم فى مظهرهم شيعة ، وفى باطنهم كما قال الشاعر :

إذا ذكر الشرك فى مجلس ... أضاءت وجوه بنى برمك
ولو تليت بينهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

ثم هم يدخلون عليه غير مستأذنين ، ويجلسون فى مجالسه غير محتشمين ، وأشد من ذلك أنهم تدخلوا فى أخص مسائله ، التى تمس شخصه ، بل حاولوا أن يحدوا من إنفاقه ، فهم يبيحون لأنفسهم أن يبعثروا ، وأن يغدقوا على من يستحق ، ومن لا يستحق ؛ أما هو فانهم يقررون له مقدارا من المال لنفقاته ونفقات عياله ، ومقدارا آخر للحوادث التى تطرأ عليه فليس له أن يتجاوز أى المقدارين ، ولا أن يخلط بينهما ، ومن يدرى لعلهم كانو يحدثون أنفسهم أن يطالبوه بقوائم يقدمها لهم ، مبينا فيها الوجوه التى أنفق فيها المال . ألا ترى أنه يطرأ عليه ظرف خاص يحتاج فيه إلى المال ، فيرسل إلى جعفر يقول له : ياأخى ، ويطلب منه عشرة آلاف درهم فيرد عليه ، وأين المال ؟ خمسة آلاف تكفى ، فيأخذها الرشيد ، وإن لم يأخذ فلا خمسة ولا ما دون الخمسة ؛ ولولا عطف بعض أصدقاء الخليفة على الخليفة لما وجد المال الذى ينفقه فى اليوم الذى انقبض فيه المال عنه .

كل هذه الأشياء وغيرها تزاحمت فى صدر الرشيد ، فأوغرته ، وأنضجت قلبه

غيظا فغضب لنفسه بعد أن حزن عليها ، وقرر أنه إما خلافة لها جلالها ووقارها وحكمها ، وإما أن لا خلافة ، فكانت خلافة ، لأنه هب ووثب فقتـــل وسجن واستصفى المال ، وأخرس الألسن ، وأرهب الأولياء والأعداد ، فصار البرامكة :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فغضب الناس لهم مديدة ، ثم أطلق كثير منهم ألسنتهم فيهم هاجين ، وكانوا أطلقوها من قبل مادحين . فعل الناس ذلك :

غير ما طالبين ذحلا ولكن مال دهر على أناس فمالوا

خلص الرشيد بذلك من البرامكة ، فكان عليه أن يجعلها عربية ، ولا نستطيع أن نقول إن العرب كانوا جهلة بشئون الحكم ، وقواعده ونظمه ، فقد سارت دولتهم على خير ما تكون دولة زمن أبى بكر وعمر ، وصدر خلافة عثمان ، وكانت عربية خالصة . وسارت الدولة زمن بنى أمية بالرغم مما كان يحيط بهم من زعازع وأعاصير ، ولم يستعينوا فيها بأعاجم يطغون عليهم ، ولكنهم كانوا خدما ، أو موالى ، أو كتابا فى الحين القليل ، وكانوا قلة ، فلو أن الرشيد رأى أن يعيدها عربية صميمة ، لما عز عليه ذلك ، ولكنه أخرجها من عجم إلى عجم ، فنقل الزمام من يد البرامكة إلى يد الفضل بن الربيع الذى علمه الحذر رأس الديك الذى فى فم الثعلب ، فظل فى موضعه هذا من الدولة ، ملتزما حده ، عارفا مكانه من الخليفة ، ومكان الخليفة منه إلى أن مات الرشيد ، وإلى أن قتل الأمين أيضا ، وقد لعب هذا الوزير فى الفتنة التى كانت قائمة بين الأمين والمأمون دورا خطيرا ليس هذا موضع الخوض فيه ، والحق أن الفتنة التى قامت بعد موت الرشيد كان ظاهرها بين الأمين والمأمون ، وباطنها بين الفضل بن الربيع والفضل بن سهل ، كل منهما يعمل على نصرة صاحبه أوعلى نصرة سياسته ، وكان منهجهما سياسة فارسية برمكية مشوبة بشىء من التصون والتيقظ ، لم يعتمدوا فيها إلا على الأعاجم اخوانهم ، فالذين ناصروا الامين أعاجم والذين ناصروا المأمون أعاجم ، والذين قتلوا الامين أعاجم ، ولو أنهم كانوا عربا لما قست قلوبهم ، وتحجرت ، فإنهم دخلوا عليه ، وهو يلتف فى ثيابه

وقلبه يخفق حتى ليكاد يخرج من صدره ، فضربه أحدهم سيفا فرفع صوته وقال : أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون . الله الله فى دمى . فلم يلتفتوا الى شىء من ذلك وتكاثروا عليه ، وذبحوه من قفاه ، وهو مكبوب على وجهه ، ولو أنهم كانوا عربا اللانت له قلوبهم ، واكتفوا بحمله الى أخيه ليرى رأيه فيه . وان ذا الرياستين الفضل بن سهل ، أراد أن يثير حنق المأمون على طاهر بن الحسين ، فقال للمأمون ، وقد دخل عليه طاهر برأس أخيه : أمرنا أن يأتى به أسيرا ، فأرسل به الينا عقيرا .

وظل الفضل بن سهل مستوليا على المأمون ، وحجز عنه الناس عامة والعرب خاصة كما حجزه عن الناس بمرو ، فغضب لذلك العرب وثاروا ، وصاروا يحتالون على الاتصال بالمأمون حتى أفهموه أن العرب يسيئهم أن يسلم نفسه للفضل ، وأن يبقى فى مرو بعيدا عن بغداد فرحل اليها على غير رغبة الفضل الذى تمكن العرب من قتله تخلصا منه كما مات على الرضا الذى بايع له المأمون تنفيذا لاشارة الفضل فخلص المأمون للعرب أو كاد ، وهدأت الثائرة ، لأن الحسن بن سهل لم تكن له ضلع فى قوة ضلع أخيه

وأكبر الظن أن هؤلاء الناس الذين تتابعوا على تولى الأمر للخلافة لم يكن يهمهم إلا أن يجمعوا السلطان فى أيديهم ، لما لذلك من لذة نفسية ، فكانوا يحاولون أن يصلوا إلى ذلك بأى ثمن ، فاذا وصلوا اليه حاولوا أن يحتفظوا به أيا كانت السبيل التى توصلهم إلى ذلك الاحتفاظ ، وهى تختلف باختلاف الأحوال التى تحيط بكل منهم ولذلك تراهم يكيد بعضهم لبعض ، ويعمل كل منهم على الوقيعة بأخيه، ويغضون من شأن العرب ، إلا إذا كان لجوءهم إلى الدين يدفع عنهم شرا أو يخرس عدوا ، ولذلك كثرت الزنادقة فى عهودهم المتتابعة ، وكان من الزنادقة من يخفى زندقته حتى يصل إلى منصب كبير فى الدولة ، وحسبنا من ذلك ما نعرفه من الأفشين ، أحد قواد المعتصم الذين كان لهم بلاء فى محاربة الزنادقة ، كان هو زنديقا أيضا . فجىء به لمحاكمته فى مجلس الخليفة ، وثبت عليه أنه ضرب رجلين إماما ومؤذنا ، كل واحد ألف سوط

لأنهما هدما بين أصنام واتخذاه مسجدا . وأن الأعاجم كانت تكتب اليه فى كتبها: إلى إله الآلهة من عبيده ، فيقرهم على ما يكتبون ، وأنه كتب إلى أحد العمال الأعاجم يطلب منه الخروج عن الطاعة ، لأنه يشعر بضيق حتى ينصر دين المجوس على دين العرب ، وأنه يستطيب المنخنقة والمذبوحة، وانه كان فى كل يوم أربعاء يستدعى بشاة سوداء ، فيضربها بالسيف نصفين ، ويمشى بينهما ثم يأكلها ، إلى غير ذلك من الأمور التى كان يفعلها الأفشين الذى كان المعتصم يعقد له ، ويؤمره على الجيوش ، ويخرج لقتال بابك الخرمى الزنديق ، فيقتل كثيرا من أتباعه ، ويهزمه ولكنه لا يقتله هو مع أن سيفه تمكن مرات من عنقه .

فلما تحقق المعتصم أن الأفشين كان على هذا سجنه وأذله واحتاط على أمواله وخزائنه فوجد فيها أصناما مكللة بالذهب والجوهر وكتبا فى فضل دين المجوس ، وأشياء أخرى تدل على زندقته وكفره ، فأمر به فصلب ، ثم أحرق وذرى رماده فى دجلة .

هذا الأفشين صورة من صور كثيرة تعددت زمن سيطرة العجم على أصحاب السلطان العباسيين على نحو مما قدمنا ، وكانوا كلما انقضت منهم دولة قامت دولة وكانوا جميعا لا يهتمون بالمسائل التى تخص العرب لغتهم أودينهم أو جنسهم أو قوميتهم إلا بالقدر الذى يجعلونه ذرا للرماد فى العيون لذلك تفشت الزندقة ، وقويت الشعوبية وضعفت النعرة العربية ، وحاول القوم أن يعيدوا دولتهم كما كانت قبل أن يهدمها الاسلام . اسمع ما كتبه أخو الافشين يوما إلى أخى المرزبان أحد ملوك الصغد للمعتصم (إنه لن ينصر هذا الدين غيرى وغيرك وغير بابك الخرمى، فأما بابك فقد قتل نفسه بحمقه ، ولقد جهدت أن أمنعه ، فأبى إلا احتفه ، وأنت إن خالفت لم يرمك القوم بغيرى ، ومعى أهل النجدة ، وإن توجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة والترك ، والعربى كلب تناوله لقمة وتضرب رأسه ، والمغاربة أكلة رأس والأتراك لهم صدمة ، ثم تجول الخيل جولة ، فتأتى عليهم . ويعود هذا الدين إلى ما كان عليه أيام العجم) .

فكان لابد من إقامة سد فى وجه ذلك التيار حتى لايجرف البقية الباقية منهم فيقضى على السلطان الذى بقى اسمه فى الخلفاء وينقله اليهم .

فكر فى ذلك المعتصم فرأى وجوب تغيير هذا الاتجاه السياسى الذى أوشك أن يجتاح خطره العرب ، ولكنه سلك سبيلا لعل غيرها كان أجدى عليه، فانه خرج من شر إلى شر . وفك العقال من رجله ليضعه غلافى عنقه ؛ فجاء من الاتراك بنحو من عشرين ألفا ؛ وجعلهم فى خدمته ، وملكهم من آلات الحرب والدواب مالم يتفق لغيره فناوأ الفرس والأتراك بعضهم بعضا ؛ وكان كل منهما شق رحى وطحن العرب بين الشقين .

وبعد فهل أخطأ الخلفاء فى سياستهم ؟ وهل أخطأ أمراء العرب فى موقفهم من الخلفاء ومن الفرس ومن سياسة الدولة عامة ؟ وهل كان للفرس حق فى انتهاج هذه الخطة التى ساسوا بها العرب ؟ وهل نجحوا فى هذه السياسة فانتقموا من العرب الذين قضوا على دولتهم دينيا ولغويا ؟

كل هذه أسئلة ترد على الخاطر حين درس السياسة فى هذا العصر ، ويؤلمنا أن نجيب عنها فى صراحة الباحث غير المتعصب للغة ولا جنس ولا دين .

يؤلمنا أن نقول إن الخلفاء أخطئوا فى أنهم أسلموا الفرس زمامهم ولم يقيموا من أنفسهم حراسا عليهم يراقبون تنفيذ سياستهم لذلك كان هؤلاء ينسون أنفسهم وحقيقتهم ومكانتهم فى الدولة فيطغون . ويرخون لسياستهم العنان حتى إذا انتبه الخلفاء من غفوتهم وجدوا أن الأمور تكاد تنتقض عليهم فيغضبون ويثورون ويخيفون من أمنوهم ويقتلون ويحبسون ويصادرون الأموال وغير ذلك من الأعمال التى يثبتون بها ملكهم وقد أوشك أن تعصف زعازع السياسة الحمقاء فى نظرهم لذلك نجد مؤرخى الفرنجة الذين يشتغلون بتاريخ العرب يقررون أن خلفاء المسلمين فى هذا العهد والذى قبله يتبعون سياسة مكيافلى قبل أن يخلق مكيافلى أى أنهم ساروا عليها عمليا قبل أن يضعها صاحبها نظريا ، وسياسة مكيافلى هى التى ضمنها كتابه «الأمير» الذى كان له عظيم الأثر فى السياسة الأوربية فى القرن السادس عشر . فإن مؤلفه

ضمنه مبادىء سياسية عامة إذا سار عليها الملوك والأمراء توطدت دعائم ملكهم فى زعمه ولعل قول مكيافلى : (إن الأمير الذى يريدحفظ كيان دولتهلا بد لهفى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والمروءة والإنسانية والدين) هو الذى سبب طغيان الفرد فىالقرن السادس عشر ثم نشأمن هذا الطغيان ثورات تولدت عنها الديمقراطيات القائمة لعل من الحق أن نقول : إن بعض خلفاء المسلمين كانوا يلجئون أحيانا إلى أطراف من هذه السياسة لا إلى هذه السياسة كلها ، والذى كان يضطرهم إلى هذا طغيان وزرائهم طغيانا يكاديقضى على سلطانهم وإن كانعليهم بعض الوزر فىتركهم الوزراء غير مراقبين . ولهذا ترى الاستاذ ميور المستشرق بعد أن يفيض فى مدح الرشيد يقول : لولا شائبة من القساوة المنطوية على الغدر والذى وصمت سيرته .

وأما أمراء العرب فإنهم أخطأوا فى بعدهم عن خلفائهم وتركهم فى يد ناس من غير جنسهم وكان عليهم أن يشاركوا فى الحكم فلا يستقلون به من دون الفرس ولا ينأون عنه فيستبد به غيرهم .

وأما الفرس أنفسهم فإنهم لولا مبالغتهم فى جمـــع السلطان فى أيديهم ولولا استبدادهم بكل شىء حتى بالخلفاء أحيانا ، ولولا تعصبهم الذى كان يظهر كثيرا لجنسهم ولغتهم وحضارتهم ، لولاهذا كله لـكان لهم فى السياسةالإسلامية أثرخير مما تركوا ، فإن هذه الأمور اضطرت الخلفاء إلى أنهم يستبدون بهم ويهدمون ما يبنون .

وهذه السياسـة هيأت فرصة لأقوام آخرين ليسوا عربا ولا فرسا فلعبـوا فى السياسة الاسلامية دورا زادها ضعفا على ضـعف وانتهى الأمر. بالسياسة الاسلامية إلى أنها لم تصطبغ بلون خاص فهى بعد أن انسلخت من الديمقراطية الاسـلامية الأولى لم يكد يستقر عليها الثوب الفارسى حتى بدا مهلهلا مزقت حق الساسة وتردد الخلفاء بين اللين الذى يكاد يكون ضعفا والقسوة التى تـكاد تـكون وحشية . لهـذا انـكمشت سياسة الفرس بعد ذلك وبدأ ظلهـا يتقلص من البلاد الاسلامية وينحسر إلى منبعه الأول حتى أعادوا دولتهم

الفارسية الكسروية متأثرة هى بلغة العرب ودينهم وسياستهم أكثر مما أثرت هى فيهم إذا استثنينا كبار العلماء والأدباء الذين ظهروا منهم فى العصور الأولى والوسطى من التاريخ الاسلامى .

ولو أنهم كانوا مخلصين فى سياستهم لتوجهت السياسة العربية متأثرة بهم ، ولما وجد غيرهم من الدخلاء منفذا ينفذون منه ليسيطروا على الخلفاء ، فتعددت الأجناس ، واصطدمت الرغبات وهوت الخلافة هويا لم تنهض منه بعد .

وإنه لما يحز فى النفس أن الدول الاسلامية ظلت على تباعد وتنافس وأنانية وتطاحن إلى وقت قريب ، وكم نتمنى على الله أن يوحد بين هذه الدول تحت لواء الوحدة الاسلامية ، وأن يهيىء لها جوا سياسيا إسلاميا سعيدا يأخذ بيدها ويحقق لها مكانة تتفق مع ماضيها المجيد .

محمد احمد برانق

القسم بالمخلوقات فى القرآن الكريم [١]

للأستاذ عثمان أبو النصر بك
عضو مجلس النواب
والأستاذ بدار العلوم سابقا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان. وبعد فقد قضت النهضة الحديثة أن يتجه الأدباء والعلماء إلى إحياء البحوث القرآنية التى تدور حول بلاغة القرآن وموضوعاته، غير أن القسم فيه لم يكن له الحظ الموفور من عنايتهم، على أنه من أشد موضوعاته حاجة إلى الإيضاح درءاً لتلك الشبهات التى تخطر ببال كثير من القراء والمستمعين.

ذلك أنا إذا استقصينا القسم فى القرآن وجدناه تعالى يقسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على أن الله واحد وتارة يقسم على أن الرسول حق وتارة يقسم على أن القرآن حق وتارة يقسم على البعث والجزاء وتارة يقسم على حال الانسان

يقسم على أن الله واحد كقوله تعالى والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد وعلى أن الرسول حق كقوله تعالى: «يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وعلى أن القرآن حق كقوله تعالى: « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم وعلى الجزاء كقوله تعالى: «والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع: وعلى حال الانسان كقوله تعالى، «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وماخلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى

---

(١) محاضرة ألقيت بنادى دار العلوم فى ٥ من يوليو سنة ١٩٤٣

وفى هذه الآيات وغيرها ترى المقسم به من مخلوقاته تعالى فإقسامه أولا وكونه يقسم بالمخلوقات ثانيا أثارا الشبهات الآتية :

(١) الجرى على عادة الحلف عندنا غير محمود شرعا وكذلك قال المسيح: لكن قولكم نعم نعم أو لا لا ولا تحلفوا . فلماذا أكثر الله من الأيمان فى القرآن ؟

(٢) نهى النبي ﷺ عن الحلف بغير الله فقال: من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت . وقالوا إن الحلف بغير الله يقتضى تعظيمه والعظمة لله وحده ثم اختلفوا أهذا النهى للتحريم أم للكراهة وعلى كل فاجتنابه مطلوب شرعا فكيف حلف الله بمخلوقاته كالتين والزيتون ؟

(٣) القسم القرآنى كما قلنا قد وقع على أمور مهمة جدا هى أصول الايمان فما المقصود به ؟ إن كان المقصود تحقيق المحلوف عليه وإثباته فى ذهن المؤمن فالمؤمن مصدق لا يحتاج إلى يمين وإن كان المقصود به تحقيقه وإثباته فى ذهن الكافر فالكافر لا يصدق باليمين ولا يقنعه إلا الدليل الساطع والبرهان القاطع

تلك الشبهات تخطر كلها أو بعضها فى مجالس القرآن ببال القراء والسامعين فاذا سأل أحدهم كيف يقسم الله بمخلوقاته كان الجواب إن الله أراد تشريف تلك المخلوقات والتنويه بها وإعلاء شأنها والرد على من ذمها وهذا ظاهرا لصحة فى قوله تعالى لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون إذا قلنا إنه خطاب من الله جل شأنه لنبيه ﷺ فقد كان النبي واحدا من العرب ظهر فيهم وعليهم فلقى منهم إيذاء واستهزاء ولقى منهم عنادا وإصرارا وعتوا واستكبارا فمن المعقول ان يشرفه الله بأن يقسم بحياته اما انه يشرف الخيل العاديات ضبحا بالقسم بها فبعيد لأنها كانت واضحة الشرف عند العرب حتى روى انهم كانوا يولمون ويعملون ما يعمل فى الافراح ويهنىء بعضهم بعضا لغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج وأبعد منه أن يشرف بالقسم كلا من الشمس والقمر والنجوم وقد بلغت عندهم من الشرف غايته حتى عبدها بعضهم وفى تشريفه اياها بالقسم بها إغراء لهم بالتمادى فى عبادتها وهو يقول: لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. وأبعد من هذا وذاك ان يشرف بالقسم فى الجملة كلا من إبليس

وأمثال الخنازير والخنافس والصراصير فى اقسامه بكل المخلوقات من علوى وسفلى وإنس وجن وملائكة وحيوان ونبات وغيرها إذقال جل شأنه فلاأقسم بما تبصرون ومالا تبصرون وقال وشاهد ومشهود ومما نبصره ونشهده الخنازير وأمثالها ومما لانبصره إبليس وقد طرده الله فقال له اخرج منها مذءوما مدحورا وقال له أخرج منهافانك رجيم وإن عليك لعنتى أو اللعنة إلى يوم الدين .

كل هذا دعانى إلى الشك فى صحة هذا الخطاب والشك أول مراتب اليقين فأخذت أتدبر كتب أئمة المفسرين السابقين حتى وقفت للفخر الرازى والشيخ زاده والبيضاوى وابن القيم على ما ارتاحت له نفسى واطمأن له خاطرى

أساس تلك الشبهات

لعل أساسها ما تسرب إلى الأذهان من أن الغرض من القسم تقديس المقسم به أو تشريفه وتعظيمه وساق الناس إلى هذا أن معظم ما أقسم الله به من مخلوقاته شريف فى ذاته كالقرآن والشمس والقمر ولكنكم سترون وستحكمون أن القسم فى اللغة قد يكون بالخسيس فيؤدى غرضا مقصودا وسترون أن القسم بالمخلوقات فى القرآن نوع يباين القسم التقديسى وقد يباين التشريفى ولكنه يؤدى غرضاً جليلا قد لايؤديه غيره .

ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب وعلى طريقتهم وأسلوبهم كان علينا أن نعرف الغرض الأصلى من القسم عندهم وأن نتبين أنواعه وأساليبه

الغرض الأصلى من القسم

كثيرا مايحتاج المتكلم إلى تأكيد خبر يسوقه أو وعد يصدر منه وبخاصة فى فى الأمور المهمة كالمحالفات والمعاهدات . وكان للتوكيد عند العرب صيغ مختلفة وكان القسم أقواها توكيدا وتحقيقا للخبر فى ذهن السامع لأنه يفيد الجزم بصحته والقطع بصدقه وقد بلغ من شأن القسم عندهم أن كانوا يحترزون كل الاحتراز من الأيمان الكاذبة ويعتقدون أنها شؤم على صاحبها تخرب الديار وتدعها بلا قع لما فيها من الغدر والخيانه ومن أجل هذا كانت اليمين عندهم قاطعة فى إثبات الحقوق قال زهير .

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

فالغرض الأصلى من القسم توكيد المقسم عليه. أما تقديس المقسم به أو تشريفه فغـــير مقصود أصالة وان أتى تبعا والعرب لم يكونوا يلتزمون ذكر المقسم به قالت خرنق .

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق

ولا ذكر لفظ القسم أيضا بل يكتفون بلامه كقول لبيد

ولقد علمت لتأتين منيتى إن المنايا لا تطيش سهامها

وقد اختلف فى تقدير المقسم به فاذا قدرته أنت لفظ الجلالة وقلت تريد خرنق ألا أقسمت بالله لا آسى ويريد لبيد ولقد علمت والله لتأتين منيتى قال غيرك تريد خرنق ألا أقسمت بحياتى ويريد لبيد ولقد علمت وأبيك وقد كان هذا الاختلاف سببا فى اختلاف أئمة المسلمين فيما حذف منه المقسم به أهو يمين شرعيـة يعاقب الحانث فيها أم لا قال العسقلانى فى الجزء الحادى عشر ص٤٢٨: أن من قال أقسمت لأفعلن كذا لا يكون يمينا إلا عند الحنفية وقيل يكون يمينا إذا نوى الحالف الحلف بالله وكل هذا يفيد أن التقديس غير لازم فى كل قسم حذف فيه المقسم به إلا إذا نوى الحالف الحلف بالله ــ وسيأتى من الأمثلة ما يدل على أن الغرض من القسم قد يكون تحقير المقسم عليه لحقارة المقسم به وإذا يكون القسم أنواعا نوع يلزم فيه التقديس ونوع فيه تشريف وإعزاز للمقسم به ونوع ثالث هو المقصود بالبيان يكون القسم فيه بالدليل أو ما هو فى حكمه ولى أن أسميه القسم الاستدلالى .

القسم التقديسى

القسم التقديسى: إقسام الانسان بمعبوده فهو عندنا أن تقسم بالله أو بصفة من صفاته فتقول أقسم بالله أو بعزته أو بجلاله مثلا لأفعلن كذا وهو أقوى أنواع القسم توكيدا للمقسم عليه وهو القسم الشرعى الذى يعاقب الانسان على نقضه بعد توكيده وليس من مقصدى أن أتوسع فى الكلام عليه .

القسم الإكرامى والتشريفى

يحس الإنسان فى نفسه عزة ورفعة فيحمله هذا اذا أراد توكيد كلامه أن يقول

ورأسي أووحياتى أولعمرى لأفعلن كذا وقد يريد إعزاز المخاطب وإكرامه فيقول : ورأسك أو لعمرك، وإذا كان المخاطب ملكا قال وجلالك ، فكل هذه الأيمان تفيد التوكيد وتشعر بتعظيم المقسم به لا إلى حد التقديس، وهى إذا أضيفت إلى المتكلم دلت على شعوره بشىء من العظمة ولذا يتورع عنها الصالحون وكذلك قال المسيح لاتحلف برأسك لأنك لاتستطيع أن تجعل شعرة بيضاء سوداء . وللفقهاء فى هذا كلام كثير ليس هذا موضعه .

القسم الإستدلالى

(١) رجوت صديقا لى أن يعيرنى كتاب سيبويه فأبى وما كنت أظنه يضن به على وبعد أيام نسيها ذلك أو تناساه طلب أن أعيره بعض كتبي فقلت له : وكتاب سيبويه ما أعيرك أى كتاب تطلبه منى . أقسمت له بكتاب سيبويه لا لتقديسه ولا لتشريفه ولكنى أردت أن أذكره بضنه على به بصورة تلفت النظر وتدل على ما فى نفسى من الأثر فضلا على مافيها من توكيد المحلوف عليه وتأنيب صاحبى على ما كان منه فلم أر خيرا من أن أقسم بالسبب الذى أدى إلى رفض الطلب .

(٢) وإذا سمعنا ولدا يقول لولى أمره : وشحك على وجوعى وعريى لآخذن كل ماتصل إليه يدى من مالك فليس فينا من يقول إن هذا الولد أراد بهذا القسم تقديس الشح والجوع والعرى أوأراد تشريفها وهى التى ضايقته وآلمته وإنما حلف بما يؤلمه أن يؤلم من يؤلمه بأن يأخذ كل ماتصل إليه يده من ماله كأنه قال سأولمك بأخذ مالك لأنك تؤلمنى بالشح والجوع والعرى أو كأنه قال : أنت السبب فى جوعى وعريى بشحك مع يسارك ومن كان كذلك يستحق أن آخذ كل ماتصل إليه يدى من ماله فانت تستحق أن آخذ كل ما تصل إليه يدى من مالك فقدم الدليل فى صورة القسم التى تفيد توكيد المحلوف عليه وتلفت المخاطب إليه فيتمكن فى ذهنه فضلا على أن هذا القسم ينم على أثر خاص فى نفس المتكلم ويشعر بشىء من الوعيد فى غير مبالاة .

(٣) وكذلك روى أن هجرسا حين هم أن يقتل خاله جساسا قاتل أبيه قال : وفرسى وأذنيه ورمحى ونصليه وسيفى وغراريه لايترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه ثم طعنه فقضى عليه .

لم يرد هجرس تقديس فرسه وأذنيه ورمحه ونصليه وسيفه وغراريه ولا تشريفها

وإن كانت عظيمة عنده عزيزة عليه ولكنه أراد أن يقول : لاعذرلى فى أن أترك قاتل أبى حيا أنظر إليه وأنا تام الأهبة قادر على الطعن والضرب والثأر أو أراد أن يقول : أنا تام العدة قادر على الثأر ومن كان كذلك لا يسوغ له أن يترك قاتل أبيه حيا وهو ينظر إليه فانا لا يسوغ لى أن أترك قاتل أبى حيا أنا أنظر إليه فوضع الدليل فى صورة القسم التى تفيد توكيد المحلوف عليه وتلفت السامع إليه دون أن تعطى الخصم فرصة الإنكار أو الفرار .

(٤) وكذلك قال عروة بن مرة الهذلى

وقال أبو أمامة يالبكر فقلت ومرخة دعوى كبير

أى وحق المرخة لقد دعوت يا أمامة منيئا كبيرا حين قلت يالبكر وإنما قال كبيرا تهكما فهو يريد فقلت ومرخة دعوى صغير على حد قولك للأسود ياأبيض وللجبان يا أسد وقوله تعالى : «ذق أنك أنت العزيز الكريم» أى الذليل اللئيم والمرخة شجرة ضئيلة الظل لا تقى من استظل بها حر الشمس ولذا يقول العرب لمن لجأ إلى ضعيف لا يحميه : لقد استظل بمرخة : قال أبو جندب الهذلى :

وكنت إذا جار دعا لمضوفة أشمر حتى ينصف الساق مئزرى

فلا تحسبا جارى لدى ظل مرخة ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر

أى فلا تحسبا المستجير بى فى كنف رجل ضعيف كالمرخة لا تحمى المستظل بها .

أقسم عروة بالمرخة على ضعف المستغاث به وهو إقسام بالمشبه به على المشبه كأنه قال : أبو أمامة فى استغاثته ببكر كمن يستظل بمرخة

وفى القسم بالمشبه به توكيد للمحلوف عليه ولفت للسامع إليه وتقرير له فى ذهنه ولكن الغرض من هذا التشبيه تحقير المشبه والتشبيه كما تعلمون يأتى للتحقير كما يأتى للتعظيم والإيضاح ببيان الحال أو مقدارها أو ببيان الدليل وهو ما يسميه علماء البيان بيان الإمكان .

(٥) كذلك قال بعض الشعراء لعمر أبى الواشين إنى أحبها

وقال آخر . فان تك ليلى استودعتنى أمانة فلا وأبى أعدائها لا أذيعها

أقسم الأول بحياة أبى الواشين وأقسم الثانى بأبى الأعداء وكلاهما بغيض ثقيل على النفس وأنا أترك للعشاق والمحبين تقدير هذا القسم وإيضاح الغرض منه كما أترك لهم تأويل ذلك القسم الاستعطافى الذى وقع على جملة طلبية فى قول ابن الفارض .

بانكسارى بذلتى بخضوعى بافتقارى بفاقتى بغناك
لانكالى إلى قوى جلد خا ن فإنى أصبحت من ضعفاك

فقد أقسم بالانكسار وما بعده طلبا للرحمة واستدرارا للعطف .

من هذا ظهر أن التقديس والتشريف لايلازمان المقسم به وأن المقسم به قد يكون حقيرا أو بغيضا ثقيلا وأن القسم قد يكون للتذكير بالمقسم به والتنبيه إليه وقد يكون للاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه أو لتشبيه المقسم عليه بالمقسم به إيضاحا له أو بيانا لإمكانه ولكل هذا نظائر فى كتاب الله جل شأنه وإلى بعض هذا نبه الفخر الرازى والبيضاوى والشيخ زادة . قال الشيخ زادة نقلا عن الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع إن الأيمان الواقعة فى القرآن وإن وردت فى صورة القسم إلا أن المقصود بها الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وهو هنا صدق الوعد والبعث والجزاء كأنه قيل : من قدر على هذه الأمور العجيبة المقسم بها يقدر على إعادة من أنشأه أولا كقولك لمن أنعم عليك وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك : استدل بالمقسم به وهو النعم على مواظبة الشكر اه .

ولعله أخذ هذا المثال من قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى : « قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين »أى بحق النعمة التى أنعمتها على وهى نعمة المغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين أو كما قال البيضاوى أى أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين اه فان شئت جعلت ما موصولة وإن شئت جعلتها مصدرية وعلى كل ؟ فالباء للقسم كالباء فى قول إبليس فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض والآن نبدأ بشرح بعض الأمثلة القرآنية .

(١) قال تعالى : يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين .

أقسم جل شأنه بالقرآن الحكيم على أن محمدا ﷺ رسول من المرسلين ونحن نعلم أن القرآن معجزة من المعجزات التى ثبتت بها الرسالة بعد أن لم يستطع العرب أن يأتوا بحديث مثله ولا بعشر سور من مثله مفتريات ولا بسورة من مثله قل لئن

اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

فإقسام الله بالقرآن على صحة الرسالة إقسام بالمعجزة التى تؤيد تلك الرسالة والدليل الذى يثبتها كأنه قال إنك من المرسلين بدليل القرآن الحكيم فأخرج الدليل مخرج اليمين لأن المتكلم كما قال الرازى إذا بدأ كلامه باليمين يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى إليه تمام الإصغاء ويقبل على سماعه كل الاقبال . وفوق هذا أقول : إن فى القسم بالمعجزة تذكيرا بها وتبكيتا للمعاند على الاغضاء عنها ولا أدل على هذا التوجيه من أن الله جل شأنه عودنا فى كتابه العزيز تصريف الآيات والبراهين التى يسوقها دلائل على أصول الايمان فتارة يذكرها على سبيل الآية والعبرة وتارة يذكرها كأنها خبر من الأخبار وأحيانا يذكرها بأسلوب القسم وقد رأيتموه يقسم على الرساله بالقرآن الحكيم وسمعتم قوله تعالى : قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية :

وها هو ذا يقول فى سورة العنكبوت : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ۵ أو لم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم — طلبوا أن ينزل الله عليه آية دالة على رسالته كناقة صالح وطوفان نوح ونار إبراهيم وعصا موسى عليهم السلام فقال جل شأنه أيطلبون هذا ولم يكفهم آية على رسالتك وبرهانا على صحتها إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم وغير خاف ما فى هذا الاستفهام من الإنكار والتوبيخ ولعل فيه إرشاداً إلى ما فى القسم بتلك المعجزة من التذكير والتبكيت والقرآن يفسر بعضه بعضا فإذا جعله الله فى سورة العنكبوت آية على الرسالة كان حلفه به عليها فى سورة يس حلفاً بالدليل على صحتها .

(٢) وقال تعالى : والذاريات ذروا ۵ فالحاملات وقرا ۵ فالجاريات يسرا ۵ فالمقسمات أمرا ۵ إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع ۵ والسماء ذات الحبك إنكم لفى قول مختلف .

أقسم جل شأنه بأمور أربعة على أن ما نوعد به من البعث وأمر الساعة حق وعلى أن الدين وهو الجزاء من ثواب وعقاب واقع لامحالة فهو قسم على البعث وعلى الجزاء .

أقسم بالذاريات وهى الرياح تذرو المطر وتذرو التراب وتذرو النبات إذا تهشم كما قال تعالى : فأصبح هشيما تذروه الرياح أى تفرقه وتنشره .

ثم أقسم بالسحاب الحاملات وقرا أى ثقلا من الماء وهى روايا الأرض التى يسوقها الله تعالى إلى حيث شاء حاملة أرزاق الإنسان والحيوان

ثم أقسم بالجاريات يسرا وهى النجوم التى فوق الغمام تجرى مسخرة مذللة منقادة أو هى السفن تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا .

ثم أقسم بالمقسمات أمرا وهم الملائكة التى تقسم بين الخلق أمر الله الذى أمرت به أو هى الرياح تقسم الأمطار بين الخلق .

وتلك الأمور الأربعة من الآيات الدالة على قدرته تعالى قال البيضاوى : كأنه استدل باقتداره تعالى عليها على اقتداره على البعث الموعود فكأنه قال : إن من قدر على خلق هذه الأمور العجيبة النافعة قادر على بعث الخلق ومجازاتهم على أعمالهم وقد تقدم كلام الشيخ زاده فى هذا الموضوع

وكذلك تقدم أن القرآن الكريم جرى على تصريف الآيات الدالة على قدرته تعالى وذكرها بأساليب مختلفة وقد أقسم هنا بالرياح والسحاب على البعث والجزاء وذكرهما فى سورة الروم على سبيل الآية والعبرة فقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ٭ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ٭ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) يريد أن ذلك الذى قدر على إرسال الرياح وإثارة السحب وإحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى .

وهذا وبعد أن أقسم على البعث والجزاء بتلك الأمور الأربعة أقسم بالسماء ذات الحبك على أنهم فى قول مختلف والحبك الطرائق ومعنى كونهم فى قول مختلف أن

كانوا يقولون فى الرسول تارة إنه ساحر وتارة إنه شاعر وتارة إنه كاهن وتارة إنه مجنون وهذه أوصاف متباينة متباعدة لا يمكن الجمع والتوفيق بينها ولذا قال البيضاوى: ولعل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتباعدها وتنافى أغراضها بطرائق السماء فى تباعدها واختلاف أغراضها .

(٢) وقال تعالى : والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

المقسم عليه فى هذه السوالة يتكون من أمور ثلاثة :

الأول : دليل من أدلة القدرة الإلهية على البعث والجزاء وهو قوله تعالى : لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم

والثانى : وعيد صارم شديد وهوقوله : ثم رددناه أسفل سافلين وأسفل سافلين النار على الصحيح أو هو سجين موضع الفجار كما أن عليين موضع الأبرار ورددناه معناه ونرده فعبر بالماضى موضع المضارع المستقبل إيذانا بأن الرد إلى أسفل سافلين واقع لا محالة وتشبيها للمستقبل المحقق وقوعه بالماضى الواقع فعلا وهذا كثير فى القرآن ومنه قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد)أى إذ يوقفون على النار فيقولون ، وقوله تعالى ، ولو ترى إذ فزعوا أى إذ يفزعون ومنه المثال المشهور أتى أمر الله فلا تستعجلوه

والثالث : وعد حسن وهو قوله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون أى مقطوع والقسم فى هذه السورة على ما سترون أكثر انصبابا على الآخرين أى على الوعد والوعيد . قال أئمة المفسرين أراد بالتين والزيتون المكان الذى كثر شجرهما فيه على سبيل التجوز عبر بالحال وهو التين والزيتون وأراد المحل وهو الأرض المقدسة التى ظهر فيها عيسى عليه السلام وقالوا إن هذا المعنى هو الذى يتناسب مع طورسينين ومع البلد الأمين والتعبير بالحال عن المحل مألوف فى الكلام العربى قال تعالى : فأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون أى ففى جنته التى تحل فيها الرحمة وقال الشاعر :

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناجى ؟

أراد إذا تأخر فرسه الذى يحل السرج به .

على هذا يكون الله قد أقسم على خلق الانسان وتعذيبه وأثابته بأ مكنة ثلاثة هى مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام المعروفة أقسم بأرض بيته المقدس مظهر رسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم وفيها نزل الانجيل عليه ثم أقسم بالجبل الذى كلم الله موسى عليه تكليما وناداه من جانب الطور الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التى فيه أن اذهب الى فرعون إنه طغى ثم أقسم بالبلد الأمين مظهر خاتم الأنبياء والمرسلين أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التى هى مهبط الوحى والرسالة على خلق الانسان فى أحسن تقويم وعلى تعذيبه فى أسفل سافلين إن كفر وفجر وعلى إثابته بأجر غير ممنون إن آمن واتق وكأنه أقسم بمن ظهر فيها من الرسل والكتب وإنما أقسم بهذه الأمكنة التى هى مشرق نور الهداية على هذا الجزاء تذكيرا للانسان بما كان من أمر الرسالة وما كان من أمر الوحى وإشعاراً له بأن مايلاقيه من ثواب أو عقاب إنما هو نتيجة إيمانه أو كفره وطغيانه بعد أن أرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل قال تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وكأنه جل شأنه يقول : هأنذا قد أرسلت لك الرسل فأناروا الطريق وميزوا لك الرشد من الغى فإن عصيت فلك أسفل سافلين وإن أطعت فلك أجر غير ممنون يشبه هذا قولك لمن ربيتهم وحق ما أنفقته عليكم وأديته لكم من وسائل التهذيب والتثقيف لآخذن المسىء منكم باساءته والمحسن بإحسانه يشهد لهذا كله قوله تعالى فى سورة آل عمران : « نزل عليكم الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » ففيها التذكير بالكتب السماوية وفيها الوعيد الصريح وفيها الوعد الضمنى وفيها الدليل على القدرة الآلهية ففيها كل ما تضمنته السورة التى معنا .

(٤) وقال تعالى : والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن

الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى .

قال المفسرون أراد بالنجم جنس النجوم أو أراد به الثريا على ما اشتهر عند العرب وهوى النجم غرب أو طلع يقال هوى هويا بفتح الهاء إذا سقط وغرب وهوى هويا بضمها إذا علا وصعد والضلال ضد الهوى والغى ضد الرشاد يقول إن صاحبكم لعلى الهدى والرشاد وإنما قال ماضل صاحبكم ولم يقل ماضل محمد تأكيدا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لايعرفونه بكذب ولا غى ولاضلال .

(١) أقسم جل شأنه بالنجم إذا سقط وغرب على أن ماجاء به محمد ﷺ كلام الله لاغى فيه ولا ضلال فهو قسم على صحة القرآن .

(٢) أقسم جل شأنه بالنجم والنجوم آية من آياته الدالة على قدرته وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل فالنجم هداية فى الظلمات الحسية وآيات القرآن هداية فى الظلمات المعنوية والنجوم آياته المعنوية المرئية والقرآن آياته المتلوة فالشبه بينهما واضح والمناسبة قوية وكأنه تعالى يقول من قدر على خلق النجوم يزين بها السماء ويهدى بها فى ظلمات الليل براً وبحراً قادر بلا شك على إنزال القرآن يخرجنا به من ظلمات الغى والجهل إلى نور العلم والإيمان .

وأكثر مايكون الاهتداء بالنجوم عند غروبها أو شروقها ولذا قال تعالى والنجم إذا هوى ونظيره قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم .

(٥) وقال تعالى « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى «وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى «ومايغنى عنه ماله إذا تردى »

يقول والليل إذا وارى الشمس وحجب ضوءها والنهار إذا تبين وظهر بطلوعها وخلق الذكر والأنثى إن عملكم الذى تهتمون به ابتغاء ثمراته لعظيم الاختلاف فى جنسه وعاقبته فمنه الحق ومنه الباطل أو منه الإيمان ومنه الكفر أو منه الخير ومنه

الشر فنه ما يثاب عليه كالإعطاء والاتقاء والتصديق بالحسنى ومنه مالايجدى صاحبه نفعا بل يعاقب عليه كالبخل والكنود والتكذيب بالحسنى .

والليل والنهار يختلفان ظلمة ونورا والذكر والأنثى يختلفان استعدادا وعملا وشكلا والليل والنهار من آثار الاجرام العلوية والذكر والأنثى من الاجرام الأرضية والعلويات والأرضيات مختلفان فأقسم جل شأنه بها على اختلاف سعى الإنسان وعمله كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى أقسم على هذا وعلى أن ذلك السعى منه ما يثاب عليه ومنه ما يعاقب عليه وقد فرق جل شأنه بين العاقبتين فقال فأما من أعطى واتقى الآيتين فأومأ بهذا إلى البعث وما وراءه من حساب وثواب وعقاب وبعبارة أخرى أقسم بالمشبه به على المشبه وهذا تشبيه استدلالى يراه علماء البيان لبيان الإمكان كأنه قال أن الذى خالف بين الليل والنهار وبين الذكر والأنثى يخالف فى الجزاء بين المحسن والمسىء والمؤمن والكافر كما خالف بين الليل والنهار والذكر والأنثى .

(٦) وقال تعالى : والضحا والليل إذا سجى، ماودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى

قيل أراد بالضحى النهار أو ضوءه بدليل مقابلته بالليل إذا سجى أى ركد ظلامه أو سكن أهله وانقطعوا عن الحركة فيه ومعنى ماودعك ربك وما قلى ما تركك ربك وما أبغضك وللآخرة خير لك من الأولى لأن الآخرة خالصة من الشوائب والأولى مشوبة بالأذى والمكاره ولسوف يعطيك ربك من توارد الوحى ورفعة الشأن وظهور الدين وكثرة الأتباع وغيرها فترضى بما يغمرك به من النعم التى ليس وراءها مطلب لطالب .

نفى الله جل شأنه أن يكون قد ترك النبى أو قلاه وبشره بأن أخراه خير من أولاه ووعده أن يعطيه من جليل نعمه فيرضى بما أولاه وهذا إعلان من الله لنبيه أنه لا يزال يواصله بالوحى والكرامة فى الدنيا وأنه سيمنحه ما هو أجل وأعظم فى الآخرة وقد أقسم على هذا بالضحا والليل إذا سجى فهو قسم على صحة النبوة وعلى المعاد بآيتين واضحتين من الآيات الدالة على أن الذى خلقهما قادر على أن يرسل

نبيه إلى خلقه ويواصله بالوحى هداية لهم ورحمة بهمْ وعلى أن يجازيه فى الآخرة بما هو خير له من الأولى وتانك الآيتان هما الليل والنهار وهما مختلفتان نورا وظلمة وبينهما وبين المقسم عليه مطابقة عظيمة فالمقسم به نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل والمقسم عليه نور الوحى الذى وافى بعد طول احتباسه واحتجابه عنه حتى قال أعداؤه ودع محمدا ربه . ونور الضحا يهتدى به الناس فى معايشهم بعد تخبطهم ليلا فى دياجير الظلام ونور الوحى يهتدى به الناس فى ظلمات الجهل ونور الضحا وظلام الليل حسيان ونور الوحى وظلام الجهل عقليان والذى محا ظلمة الليل بنور الضحا يمكنه طبعا أن يمحو ظلام الجهل والغى بنور الوحى والذى اقتضت حكمته ألا يترك عباده سرمدا فى ظلمات الليل بل هداهم إلى مصالحهم بضوء النهار قادر طبعا أن ينقذهم من ظلمات الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة فالشبه بين المقسم به والمقسم عليه واضح والمناسبة قوية

(٧) وقال تعالى : والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير .

الضبح : أصوات أنفاس الخيل اذا عدون أى جرين أراد والله أعلم والخيل العاديا تضبح ضبحا .

والإيراء : اخراج النار بالزناد ونحوه والقدح الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر .

والمغيرات صبحا : هى التى تغير على العدو فى الصباح لقتل وأسر واستلاب مال فأثرن به نقعا . يريد أثرن فى الصبح غبارا

فوسطن به جمعا : أى توسطن فى الصبح جمع الأعداء ففرقنه وشتتنه

ان الانسان لربه لكنود : أى كفور ينعم ربه وأراد بالانسان جنسه لا كل فرد من أفراده

وإنه على ذلك لشهيد : يريد ولسان حال الانسان شاهد على كنوده

وإنه لحب الخير لشديد : الخير المال قال تعالى : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية الآية أى ترك مالا وشديد معناه بخيل يقول أنه شديد البخل لأنه يحب المال

المقسم عليه هنا حال الانسان وهى كونه كنودا بشهادته على نفسه وكونه شحيحا لأن حبه المال يمنعه من العطاء .

وقد أقسم الله على هذا بالخيل العادية المورية المغيرة المثيرة للنقع المخترقة للجمع الظافرة بنفوس الأعداء وأموالهم والخيل من أكرم البهيم وأشرفه وأنفعه وهى مظهر العز والثراء بها الصيد والظفر فهى مال ومجلبة للمال تعدو طالبة للعـــدو هاربة منه فتثير الغبار وتورى حوافرها النار من الأحجار حتى تتوسط جمع الأعداء فتعود غانمة ظافرة فهى نعمة من نعم الله وآية من آياته الدالة على ربوبيته وعظيم قدرته وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار .

غير أن الخيل لا تفعل هذا مستقلة بنفسها بل لا بد لها من فرسان أمجاد وشجعان أنجاد ذوى عقل وقوة والإقسام بها إقسام بالمال والصحة والعقل فمن الفجر أن يقابلها الانسان بالكفر والشح والهلع ومن الايمان أن يقابلها بالشكر والتوبة والطاعة والاحسان الى الناس وبأن ينفعهم بماله ولسانه ويده وضميره

فإقسامه جل شأنه بتلك النعم والآيات على كنود الانسان وشحه فيه تنبيه الى تلك النعم وتذكير بها وتوكيد للمقسم عليه وايذان بشدة سخطه تعالى وغضبه على ذلك النوع من الانسان مع بالغ ذمه اياه «قتل الانسان ما أكفره» ومثل هذا من كلام الناس أن تقول لمن أساء اليك بعد احسانك اليه وحق معونتى اياك واخلاصى لك إنك لغادر .

فكأن الله أراد أن يقول منحتكم تلك النعمة التى تستوجب كل الشكر والاحسان فأبى الإنسان الا الكنود والبخل والطغيان .

ويمكن أن يقال أقسم الله بالسبب على المسبب فان النعمة كثيرا ما تطغى الانسان

وتبغيه وقد ذكر الله ذلك على سبيل الخبر فقال : كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى إن الى ربك الرجعى وقال تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » وقال : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ولكن الربط بين السبب والمسبب هنا غير لازم فمن الناس من ملأ الله قلوبهم بالايمان فقابلوا النعمة بالشكر والطاعة والاحسان فاستحقوا من الله أجراً غير ممنون .

هذا وقد ولى المقسم به فى هذه السورة تهديد ووعيد يتضمنهما قوله تعالى : « أفلا يعلم اذا بعثر مافى القبور وحصل ما فى الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير » وهو كالوعيد والتهديد اللذين يتضمنها قوله تعالى : « إن الى ربك الرجعى » بعد قوله « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى والقسم بالخيل على الكنود لايبعد فى معناه عن قوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار) فنى كلتا الآيتين تذكير بالنعمة يتلوه تصريح بكنود الانسان وعليه الا أن الأول أتى على صورة القسم والآخر أتى على صورة الخبر .

ومما يستلفت النظر أن التوكيد بالقسم الاستدلالى انما كثر فى المكيات لا فى المدنيات من السور والآيات .

ولست أستطيع استقصاء أقسام القرآن فى هذه المحاضرة ولكنى أقول إن الله أقسم بالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحر والعصر والسحاب والنفس والملائكة وغيرها من المخلوقات وكلها آيات دالة على قدرته ووحدته وكماله وقد ذكرها فى مواضع مختلفة من كتابه بغير أسلوب القسم .

الخـــلاصة

(١) المقسم به فى القرآن دليل على المقسم عليه أوفى حكم الدليل صيغ فى صورة القسم وقد عمم الله فأقسم بجميع المخلوقات شاهدها ومشهودها ما نبصره ومالا نبصره .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

(٢) التقديس والتشريف غير لازمين للمقسم به .

(٣) صوغ الدليل أو النظير أو ما فى حكمهما فى صورة القسم فيه توكيد للمقسم عليه وتنبيه للسامع اليه وتمهيد له بما يقرره فى الذهن .

(٤) فى ايراد الدليل بصورة القسم ايجاز فى ايضاح أو ايضاح فى ايجاز

هذا وتفضلوا بقبول احترامى

عثمان أبو النصر
عضو مجلس النواب
والأستاذ بدار العلوم سابقا

نظرية الادب [1]

للأستاذ عبد الحميد راضى

نظرية الأدب حديث قديم ، تردد على فم الزمن من أقدم العصور . وقد توالت الأجيال فلم تفتر حلبته ، ولم تطو صفحته . وها نحن أولاء فى آخر مرحلة من مراحل الزمن نشهد كل حين مساجلات وأحاديث ، هدفها خير الأسس للحكم على الأدب .

وحديثنا عن هذه النظرية ليس إلا صورة من صورهذا الجهد المتصل ، وصدى لهذا اللون من أحاديث الزمن عن الأدب ، فى مختلف الحقب .

وقوام هذه النظرية تحديد معنى الأدب ، وعرض مميزاته . فهى الفكرة أو مجموعة الأفكار التى تضع أمام نظرنا صورة دقيقة للكلام الذى يصح أن نسميه أدبا .

والنظرية التى نريد أن نلم بها هى النظرية القائمة على أن الأدب فن من الفنون وعلى أن الفنون محبوبة مرغوب فيها . وهى لهذا تستمد عناصرها من طبيعة الفن والأدب .

وهذا يقتضينا التغاضى عن نظرية أفلاطون : فهو يناهض الفنون ويراها لونا من المسخ غير خليق بالوجود . وسر هذا الحكم القاسى أنه كان مثاليا يصدر فى فلسفته عن إيمان عميق بعالم المثل ، وكان يرى الطبيعة تقليدا لهذا العالم ويرى الفنون تقليدا للطبيعة . فالفنون تقليد للتقليد . وصورة للصورة وهى لهذا بعيدة عن الحقيقة بمرتبتين . ذلك إلى أن الفنون تبسط سلطان العواطف وتشل العقول ، والعواطف متقلبة غير خليقة بهذا السلطان .

---

(١) محاضرة ألقيت في نادى دار العلوم فى مساء السبت ٢٦ يولية سنة ١٩٤٣

ويقتضينا التغاضى عن نظريات اللغويين والنحاة . فهم لا يلتمسون عناصر نظرياتهم من طبيعة الفنون والأدب ، وإنما يقيمون أحكامهم على فقه للفظ وضبطه وغلاتهم يسقطون الشاعر المجيد ، إذا اصطنع اللفظ الجديد أو جرى فى الإعراب على المرجوح أو الشاذ . وهم يعلمون أن اللغة كائن حى ، جموده آية فنائه ومسايرته للزمن دليل حياته . وأنها كالإنسان يعيش طويلا وخلاياه فى تجدد دائم ، أو هى كالشجرة والألفاظ كالأوراق ، وبمر السنين تسقط الأوراق القديمة وتخلفها أوراق جديدة . والشجرة باقية ، لا يزيدها سقوط القديم ، وظهور الجديد إلا حياة ونماء .

ويقتضينا هذا الأساس كذلك التغاضى عن نظريات الأفراد القائمة على الهوى والميل الشخصى والتى يحاول أصحابها فرضها على الأدب والأدباء . ومن أمثلة هذا وحدة الزمان والمكان فقد فرضت فى أوربا على الأدب والأدباء زمنا ولكن الزمن أثبت أنها لا تمت إلى طبيعة الأدب بسبب .

سنتغاضى عن هذا كله إذا وسنتحدث عن الأدب على أنه فن من الفنون أو على أنه ليس مسخا للطبيعة ولا تقليدا لها ، ولكنه تفسير لها ، وتقليد لفكرة فيها ، وخلق للصور من ظواهرها .

واننا لنرى أن من حق القدامى علينا أن نعرض آراءهم وننشر فضلهم ، فهم الذين ربطوا بين الأدب والفن فى فجر التاريخ الانسانى ، فارسطو المعلم الأول هو أول من بسط هذه النظرية على أقوم الأسس ، وقد اعترف له بهذا الفضل أعلام النقد فى العصر الحاضر ، ومما ذكره صاحب قواعد النقد الأدبى ما يأتى :

(إن نظرية أرسطو فى المأساة هى الأساس الذى توطد عليه بناء البحث الأدبى من بعد أرسطو إلى يومنا هذا)

وإذا ذكرنا فضل أرسطو فى بسط هذه النظرية فخليق بنا أن نذكر فضل قوم آخرين قد يكونون أساتذة اليونان فى هذا السبيل ، هؤلاء الذين أعنيهم هم الفراعنة فقد جرى أدبهم بما يدل على وقوفهم على الصلة بين الأدب والفن قبل أرسطو بقرون :

فمن وصايا الملك خيتى أحد ملوك الأسرة العاشرة لابنه (مرى — كا — رع) ما يأتى :

(كن رجل فن بارع فى قولك تكن قويا ، فإن اللسان سيف الملك ، والكلام أشد فعلا من القتال) .

وفى هذا مايدل على فهم الصلة بين الفن والقول ، بل مايدل على فهم معنى الفن إذ وصفه بأدق صفاته أو بالصفة التى تجمع ميزاته وهى البراعة .

وهذا التعبير (فن بارع فى قولك) يذكرنا بأحدث تعبير ، بل بأحدث عنوان لكتاب فى البلاغة ظهر هذا العام .

ولعل فى هذا مايدل على أن فن الأدب ، وفن القول ، والنثر الفنى ليس واحد منها كشفا جديدا ولاتعبيرا مبتكرا ، فأحدث ما يصطنعه المصريون من التعابير فى القرن العشرين الميلادى قد اصطنعه آباؤهم فى القرن العشرين قبل الميلاد ، إن لم نقل قبل هذا القرن بآماد .

والشىء الذى لا أشك فيه أن التراث اليونانى الذى انتهى الينا عن طريق أوربا ، والذى حدا بنا إلى التجديد فى التعبير فيه أثر من آثار الفراعنة الأقدمين .

على الأساس الذى شرعه القدامى إذا سنتحدث ، وعلى ضوء من وصف فرعون للفن سنسير .

فالفن ما هو إلا براعة فى الإنتاج ، والأدب ما هو إلا قول بارع الصوغ ، وأرانى بهذا التراث المصرى قد وصلت إلى مفتاح نظرية الأدب ، نظريته القائمة على أنه فن جميل .

فميزة الأدب الأولى ، أو الميزة التى تعتبر مشرق ميزاته هى :

البراعة فى الصوغ

ونحن نريد بها البراعة التى تحقق للأديب مايريد ، وهو لايريد إلا أن ينقل اليك إحساسه وشعوره فى صورة من اللفظ تبعث الإعجاب بها والرضا عنها وتجعل النفوس تلقفها وتتأثر بها .

وكل لفظ صالح لهذا الصوغ ، والبراعة تتحقق بوضعه فى المكان الملائم له بحيث يكون بجرسه ومعناه مصدر الاحساس الأديب ، ورباطا قويا لماقبله ومابعده من الألفاظ . وقد أشار إلى هذا أحد أعلام الأدب الأوربيين الذين أدركوا القرن التاسع عشر الميلادى إذ قال فى مقدمة كتاب له :

(إن اللغة الصحيحة للشعر هى اللغة التى يتكلمها الناس ، والذى يجعلها لغة شعرية هو كيفية استخدامها)

وبديهى أن إحساس الأديب نحو الطبيعة غير الطبيعة ، ولذا يختلف الناس عند نظرهم إلى الشىء الواحد ، فقد يسر به قوم ، ويتألم به آخرون .

وهذا هو السر فى حملة أفلاطون على الفنون إذ اعتبرها مسخا للطبيعة على حين اعتبرها أرسطو تقليدا بارعا لفكرة فى الطبيعة فقدرها تقديرها وتبعه فى هذا التقدير نقدة العالم وأدباؤه .

وهذا يكشف لنا فرقا هاما بين العلوم والفنون ؛ فالعلوم تعبر عن الطبيعة كما هى والفنون تصور الطبيعة ملونة بنفس الفنان .

ومثل الطبيعة ونفس (الأديب) مثل الحبة ألقيت فى الأرض الخصبة ، فحنت الأرض عليها وغذتها وخلقت منها خلقا يبهر الدنيا ويملؤها أرجا وجمالا .

فاذا جاء أفلاطون وقال : إن الذى أرى ليس الطبيعة ، قلنا له بل نرى الطبيعة ولكن فى حياة جديدة . وإذا قال إننا بعدنا عن عالم المثل قلنا بل قربت من عالم المثل فهو عالم الحياة والجمال فى أبهى الصور ، والحياة والجمال فى النبات أبهى منهما فى الحبة ، فاذا قال وما فائدة الفنون ؟ قلنا فائدتها كفائدة النبات الذى نرى ، فاذا كان فى النبات حياتك وحياة الأحياء (جميعا) فكذلك الفنون فيها حياة لنفوس الأحياء .

فالأدب إذا تصوير لعنصرين متحدين الطبيعة والنفس الإنسانية : فالنفس الإنسانية عالم آهل بالذكريات والتجارب ، والظاهرة الطبيعية حين تسلك سبيلها إلى القلب تجد لها بين جوانحه عناصر تسكن إليها وتخف للقائها فتحدث لهذا اللقاء ما يحدث للمادة حين تجد ما تميل إليه من مواد : تفاعل ، فوران ، حرارة وصور أحيانا . فينفعل الأديب بهذا التفاعل ويهتز بهذا الفوران ويتحمس

بهذه الحرارة، ويرى بهذا الضوء الصورة كاملة واضحة، فيعجب بها ويطرب؛ ويراها خلقا جديدا لم يره من قبل ولم يره الناس من قبل؛ فيبعثه هذا كله إلى أن يخرجه للناس ليفتنهم كما فتن وليؤثر فى نفوسهم كما تأثر، وليجعلهم ينفعلون كما انفعل ويهتزون كما اهتز ويتحمسون كما تحمس.

وحرصه على تحقيق هذه الغايات، وتحمسه البالغ لهذه الصورة النفسية يجعله يصورها تصويرا مطابقا، ويبرزها سليمة تنبض بما كمن فيها من حرارة وحياة.

* * *

وليس سبيله إلى هذا وصف مايحس به وإن بلغ غايات الوضوح. ولكن سبيله إلى هذا تصويرمافى نفسه تصويرا يمكن السامع والقارىء من رؤيته ولمسه والاحساس به وهذا التصوير عنصر ذو خطر فى الأدب، فهو صاحب الأثر السحرى فى النفوس؛ وهذا ما دعا المنفلوطى إلى أن يعرف الشعر بأنه تصوير ناطق، ودعا سيمونيدس اليونانى أن يقول فى أقدم العصور: (إن الرسم شعر أخرس، والشعر رسم ناطق) بل لعل هذا هو السر فى أن اليونانيين كانوا يعرفون الفن بأنه تقليد.

ونحن فى سبيل هذا التصوير نجانس بين اللفظ واللفظ من ناحية المعنى ومن ناحية الجرس، ونجانس كذلك بين جرس اللفظ والصورة، ونحقق للنص الأدبى وحدته (وحدة الموضوع) فتكون الفقرة والجملة كالعضو فى الجسم لا غناء عنها ولا غناء بها.

ونحن فى سبيل هذا التصوير نطلق المعانى الثانوية أيضا أو بعبارة أخرى نطلق الصور البلاغية.

على أن الأديب لن يلقى فى هذا التصوير عنتا ولا مشقة فالمفروض فيه أنه لا يقنع بحفظ معانى الكلمات، بل يحس معانى الكلمات وجرسها واستعمالها إحساسا صادقا، وهذا الاحساس الصادق سيكون له أثر أى أثر فى انهيال الألفاظ عليه حتى ليرى أن اللفظ يسرع إلى موضعه الملائم له دون شعور إرادى منه ذلك إلى أن الصورة النفسية تملأ جوانب نفسه حتى ليحس أنه فى عجز عن كبتها ويحس أن راحته فى أن يحس الناس بها إحساسه.

على أن الأديب عند حدوث الصورة النفسية أى فى الحالات التى تسمى يقظة العبقرية أو لحظات الابداع الفنىأو قشعريرة الإلهام - يجرى نفسه على غير مايهوى فقد يتتابع عنيفا وقد يتضاءل ، وكذلك القلب قد يسرع نبضه وقد يبطىء ولكل هذا أثر غير إرادى فى الانتاج الفنى .

فالبراعة فى التصوير توافى العبقرى دون مجهود يبذله ، ودون إرادة توجهه أو تحمله على الإنتاج ولذا قال سقراط إن الشعراء لايقولون الشعر لأنهم حكماء بل لأن لديهم طبيعة أو هبة قادرة على أن تبعث فيهم حماسة أى إلهاما .

* * *

وهذه الصورة النفسية التى يحاكيها الأديب ، أو يبرزها فى أسلوبه هى التى نسميها الشعور الفنى أى الشعور القائم على الاتصال بين الطبيعة والنفس الخصبة ونستطيع أن نسميها الإلهام لأنها تتكون ولابد للارادة والفكر فى تكوينها ونستطيع أن نسميها التجربة وهو لفظ اصلاحى يدل عليها .

وقد تحدث صاحب قواعـــد النقد الأدبى عن هذه التجربة وأنها أساس الأدب فقال :

١ ـــ ليست التجربة بالأمر البسيط بل لا بد لها على الأقل أن تكون مركبة من أمرين مايعطى الفكر وما يعطيه الفكر) .

٢ ـــ فالمؤلف الذى يشاهدمنظرا من مناظر الطبيعة لايستطيع أن يعطى القارىء تجربته هذه إذا اكتفى بذكر المنظر الذى رآه أو اكتفى بذكر الاحساس الذى خامره بل يجب أن يؤدى تجربته تامة الأجزاء لما شاهده وما أحسه مرتبطين ارتباطا وثيقا وهذا هو مادة الأدب لا شىء غير هذا ولا شىء دون هذا .

٣ ـــ الأدب ما كان يوما ولن يكون يوما سوى تجارب يصورها الخيال .

وصاحب هذا الكتاب انجليزى معاصر من أعلام النقد وأساتذته ، ولكن آراءه لاتبعد كثيرا عما قال أرسطو وهو أن الأدب تقليد لفكرة فى الطبيعة .

ومن هذا نرى أن القدامى والمحدثين متفقون على أن الأدب تصوير دقيق لهذه

الصورة النفسية التى سموها التجربة ، وأن هذه الصورة ليست بسيطة ولكنها مزيج من الطبيعة ونفس الأديب .

ولكن كيف تكونت هذه الصورة ؟ وما الذى كونها ؟ أما أنا وقد بعد بى العهد بدراسة علم النفس — فأقول إنها تكونت وحدها ، لأن الفكر لم يشترك فيها أو اشترك فيها بحظ ضئيل ، ولأن الارادة كذلك لم تشترك فيها . ولذلك سموها إلهاما .

ولا بد أن يكون مخترعها هو حافظ المعارف والتجارب وهو ما نسميه الخيال ، زاره زائر جديد فاختفى به حوله كل ما يوائمه ويميل إليه وابتكر من الجميع صورة قوامها الزائر الجديد .

وما وظيفة هذا الخيال المختزل ؟ ولم يخترع ؟ وظيفته إيقاظ العواطف ، ويخترع لهذا . وهذا النوع من الخيال لا يحيا حياة طيبة فى ظل الفكر ولا يعيش فى ظل الإرادة ، ولكنه يحيا حياة خصبة فى ظل الوجدان .

وما كان لهذا الخيال أن ينشط فى ظل الفكر ، فالفكر يقيده بالمقدمات والنتائج وما كان له أن يصنع صنيعه فى ظل الإرادة ، فالارادة تعصف به ، وتحول بينه وبين ما يريد وأما الوجدان فيترك له حرية العمل كاملة ، وحسبه أن يظفر منه بصورة يتأثر بها . والخيال فى ظله يتحرر من الزمان والمكان وقوانين المنطق ، فيصنع من شتيت الحوادث فى مختلف الأزمنة والأمكنة صوره غير خاضع لقوانين العلة والمقدمات والنتائج .

فالكلام الذى يصور هذه الصور النفسية تصويرا بارعا يجعل القارىء أو السامع يحس إحساس المتكلم ويتأثر تأثره وينفعل انفعاله هو ما نسميه الأدب ونفتهى من هذا إلى أن البراعة فى الصياغة هى قوام مميزات الأدب ، ونحن نريد من البراعة فى الصياغة البراعة فى تصوير مافى نفس الفنان تصويرا يطابقه وينقله إلى نفس القارىء أو السامع كاملا

ولعل هذا أو بعض هذا هو ما قصد اليه أبو هلال العسكرى حين قال :

(وليس الشأن فى إيراد المعانى فالمعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى

والبدوى وإنما هو جودة اللفظ وصفاؤه وحسنه وبهاؤه ونزاهته ونقاؤه .

وهنا يدور بخلدى وخلدكم هذا السؤال .

وما شأن المعنى

واتفاقنا على أن الأدب فن ، وأن الفن براعة فى التصوير يجعلنا نصل فى يسر إلى أن البراعة فى الصياغة هى أساس الحكم على الأدب ، فاذا صور الأديب ما فى نفسه هذا التصوير البارع الذى وصفناه حكمنا له

وأما المعنى فلا براعة فيه ، ولكن البراعة فى الصلة التى يؤدى بها ، ولذا لا يعتبر مقياسا للحكم على الأدب ، وينتهى بنا هذا إلى أن نصدر حكما ابتدائيا نستمده من طبيعة الفن والأدب وهو :

« البراعة فى التصوير هى المقياس الأول والأخير للحكم على الأدب ، وأما المعنى فلا دخل له فى الحكم على الأدب فليس من شأن الأدب أن ينقل المعارف ولذا لا يعيب الأديب خطأ الفكرة ولا يرفع من شأنه صحة المعنى) ولكننا نجد أنفسنا أمام نصوص خليقة بالتقدير

١ ــ فقد قال صاحب المثل السائر : البلاغة شاملة للألفاظ والمعانى

٢ ــ وقال صاحب الطراز . واعلم أنه لاخلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لا يوصف بكونه بليغا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ ولا يكون بليغا إلا بمجموع الأمرين .

٣ ــ وقال عبد القاهر فى : (تحقيق القول من البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة) ما يأتى :

ا ــ ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارة وسائر ما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى ــ غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وأدق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ، ولا جهة لاستعمال

هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يلسبه نبلا ويظهر فيه مزية

ب ــ وقال بعد :

ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاشت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل

ج ــ وقال بعد :

وأوضح من هذا كله وهو أن هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة

وهذه نصوص ناطقة بفضل المعنى فهى تجعله شريك اللفظ فى تحقيق البلاغة أو تجعله الأول وتجعل اللفظ خادماله فى تحقيق البلاغة . ولكنها على قيمتها ليس من شأنها أن تنقض حرفا مما قلناه . فنحن نسير على أساسين لاسبيل إلى نقضهما .

د ــ أولهما أن الأدب فن وأن الفن براعة والبراعة لاتكون إلا فى الصوغ وثانيهما أن الأدب لايعيش إلا فى ظل الوجدان ونحن نعلم أن الوجدان من مظاهر الشعور وأنه متى بسط ظله تضاءل صاحباه وهما الفكر والإرادة

على أن كشف السر فى هذه النصوص ليس عسيرا ، بل هو أهون مما تتصور فهى نصوص تتحدث عما وقع ولا تتحدث عن الأدب كما يجب أن يكون ،وتفسير هذا أن توالى الزمن أنضج الفكر وقواه ، وأعطاه من البطش مالم يكن له ، فبغى على الوجدان وادعاه مجالا حيويا له لأنه أقرب الطرق وأسهلها لنشر إنتاجه ، واستعان بنظرية النشوء والارتقاء سلاحا له ، وهنا قام كفاح بين الفكر وأنصاره والوجدان وأنصاره ، انتهى بأن يكون حظ الوجدان من الاستقلال ما يسمى الاستقلال الذاتى أو الاستقلال الداخلى،وله بهذا أن ينتج ما كان ينتج من الأدب الخالص الذى لايقصد فيه أبدا إلى نقل المعارف ، وعليه فى مقابل هذا أن يؤدى الجزية وهو صاغر هذه الجزية هى نشر الإنتاج الفكرى متى طلب اليه ذلك

وهنا نشأ أدبان : أدب خالص قوامه تصوير الشعور والتأثير فى النفوس

والآخر يجمع إلى حسن الصوغ نقل الأفكار وقد سمى الادب التطبيقى ، وهذا يكون لمعناه أثر فى نفسك غير أثر اللفظ فأنت تعجب بأسلوبه وتعجب كذلك بما تضمنه من معنى

وإلى هذا أشار الأستاذ ضيف حين قال

(نرى من خلال هذا النزاع الذى احتدم بين القدماء والمحدثين أنه مبنى على فكرة فلسفية . . . إذ أن الفكرة الأساسية هى مسألة التقدم والارتقاء التى هى أصل فلسفة ديكارت المتسربة إلى الأدب المبنية على الاهتمام بالأفكار قبل الاهتمام بالصناعة اللفظية ... وقدزج هذا المذهب بالبلاغة فى مضايق الفلسفة وجعله مبنيا على البحث عن الحقائق بدل البحث عن مظاهر الجمال فى القول ، وعلى ذلك لايكون هناك فرق بين البلاغة والفلسفة ولا بين الفيلسوف والكاتب والشاعر لأن كلامنهما على رأى ديكارت يقرر الحقائق ... ولكن الذوق الأدبى فى فرنسا كانت هذبته الآداب القديمة بما فيها من الجمال ولذلك بقيت البلاغة فنا من الفنون الجميلة ، ولم يتغلب العلم والفلسفة عن محو ميزة البلاغة وهى الجمال فى القول وفى حسن التعبير وامتزجت الحقائق الفنية وأصبح البحث عن الحقائق سالكا طريق الجمال

وإلى هذا أشار أيضا الأستاذ الشايب إذ قال :

وعندى أنه لابأس بأن يحمل الفن فى طياته أسباب الاصلاح فيجمع بذلك بين النفع والتأثير ، ولكن الخطر الخطير أن تحمل النفعية سيدا عظيما لا ضيفا كريما) على أن النقدة الغربيين لازالوا يحكمون على الأدب مع هذا حكما قائما على أساس البراعة والصياغة ، ويغضون الطرف عن المعنى حين الحكم عن الأدب سواء أكان خالصا أم تطبيقيا

وبدهى أننا إذا أسرفنا فى تقدير المعنى فاننا ننتقل إلى العلم والفلسفة من حيث لانشعر وبهذا عاب أصحاب البحترى أبا تمام فقد ذكر الآمدى على لسان أحدهم غضا من شعر أبى تمام وعلل هذا بقوله : إذكان معلوماشائعا : أن شعر العلماء أقل من شعر الشعراء . ولعلنا بهذا نكون قد وصلنا إلى مميزات كثيرة للأدب لاتحتاج إلى إيضاح منها

أ ـــ وحدة المشروع

ب ـــ شخصية الأديب

جـ ـــ أن يكون للعاطفة أثر فيه

وهنالك ميزات أخرى قد تكون واضحة ، ومع هذا لانرى بأسا من تناولها . وهي : الحيوية ، الجمال ، الخلود ، الصدق .

ا ـــ ونقصد بحيوية الأدب مافيه من نبض وحياة . وليست حياة الأديب بدعا فى الوجود فهى ككل الكائنات وليدة عنصرين مختلفين : فاذاكان الأساس فى حياة النبات والحيوان تلاقى عنصرين قابلين للاتحاد ، عنصرين فى كل منهما ميل لصاحبه ، ونزوع للامتزاج به ، فكذلك الأدب حياته قائمة على تزاوج عنصرين مختلفين : عنصر خارج عن النفس الإنسانية وعنصر من النفس الإنسانية وبهذا التزاوج بين العنصرين يسرى فى الأدب روح تبعث فيه النبض وتشيع فيه الحياة .

فالكلام الذى ينتجه عنصر واحد يكون كالثمرة التى لم يتح لها لقاح لاتهفو اليها نفس ولا يرغب فيها لذاتها راغب .

فإذا صور الكلام منظرا طبيعيا تصويرا دقيقا أو بعبارة أخرى تصويرا علميا فإنه لايكون بذاته حافزا للأقبال عليه ، وقد يحفز لقراءته مايتضمنه من معنى وقد يقرؤه الانسان وهو كاره كما يشرب الدواء لنفع فيه ، والأدب لايقرأ لنفع فيه وإنما يقرأ لأنه هو ذاته يستهوى النفوس .

فالكلام لايتسم بالحيوية إلا إذاكان وليد هذين العنصرين والحياة التى توهب له هى مصدر من مصادر إعجابنا به ورضانا عنه .

على أن هذه الحياة ليست مبتكرة فى الأدب وليست من خلق الأديب ولكنها وليدة التصوير الصادق للصورة النفسية الحية التى تحدثنا عنها .

وأما الجمال

ب ـــ وجمال الأدب يتلمس فى كل ناحية من نواحيه : ففى وحدته وتماسك أطرافه جمال وفى موسيقى لفظه جمال ، وفى صلة هذه الموسيقى بتصوير المعنى جمال ،

وفى اطلاق المعانى الثانوية (المعانى البلاغية) جمال ، وفى وضع كل كلمة فى الموضع الذى لانرى لها محلا غيره جمال ، وفى غرابة الصورة وجدتها جمال ، وفى تصويره النواحى النفسية التى لم يفطن لها السامع أو فطن لها ولم يستطع تصويرها جمال ، وفى صدقه جمال .

ح — وهذا الجمال سر من أسرار خلود الأدب ، وهنالك أسرار أخرى، والأخ الفاضل الأستاذ الشايب يرجعه إلى العاطفة ويعلل هذا بأن الانسان ينفعل به فإذا تركه زال الانفعال وإذا قرأه مرة أخرى تجدد الانفعال فيبقى الانسان دائما فى حاجة إلى التمتع به .

ونحن قد نصل بما قلناه إلى خلود الأدب كذلك فقد قلنا إن الوجدان متى بسط ظله فإن الارادة تتضاءل ، وفى تضاؤل الارادة خلود الأدب ، فالإنسان الإرادى إنسان فردى يعظم شعوره بنفسه فهو أنانى يؤمن بأنه من طينة غير طينة الناس فهو لهذا لايحس إحساسهم ولا يشعر شعورهم ذلك إلى أن هذه الأنانية بل هذه الإرادة تدفعه إلى المطامع فيشغل بها ولا ينظر اليها نظرة خالصة فإذا تحرر الانسان من هذه الإرادة قويت إنسانيته فأصبح يشعر شعور الانسان ويتأمل الحقائق تأملا خالصا من كل غرض ، فإذا تملكه إحساس شعر أن هذا إحساس الناس جميعا فوزعه عليهم ، ونقله فى أمانة وإخلاص إلى نفوسهم .

بل هو فى شعوره أكثر من إنسان : هو مخلوق من هذه الأرض ولذا يحسن فهمها وفهم ظواهرها ، ولا يرى صفة تقصر على صنف منها .

فالابتسام حق مشاع ، الانسان يبتسم ، والزهرة تبتسم ، والطبيعة تبتسم والطرب حق مشاع : فالانسان يطرب ، والأغصان ترقص وتطرب وتشرب والانسان فى نظره جامد أحيانا كالحجر ، والحجر عنده أحيانا ناطق مبين . على أن العبقرى لايتحرر من الارادة وحدها بل يتحرر كذلك من الزمان والمكان وقوانين المنطق كما قلنا .

والزمان رمز الفناء ، والمكان دليل الجمود ، والعلة طاغية جبار يتطلب أن يخضع كل صنيع لمنطق العقول .

ومن تحرر من الزمن فالدهر كلها زمنه ، ومن تحرر من المكان فكل مكان وطنه ومن تحرر من العلة لا تسأل النفس حين تتقبله لم تتقبله .

وأما الصدق فى الأدب فمن أظهر مميزاته لأن الأديب لا يصور إلا شعوره إلا إذا تحكم فيه الفكر وتحكمت الارادة لهوى من أهواء الدنيا فحملاه على أن يقول مالا يشعر به ، فيمدح من لا يحب ، ويصف الشىء بغير صفاته .

وإذا كان من مأثور الأدب العربى أن أحسن الشعر أكذبه فرأيى أن هذا قد يكون فى أدب الفكر أو بعبارة أخرى الأدب التطبيقى وأما الخالص فأحسنه أصدقه .

عبد الحميد راضى
المدرس بالكلية الحربية

رأى جماعة دار العلوم

فى

تقرير حضرة صاحب المعالى احمد نجيب الهلالى باشا

وزير المعارف

عن اصلاح التعليم فى مصر

أصدر حضرة صاحب المعالى احمد نجيب الهلالى باشا وزير المعارف تقريرا عن إصلاح التعليم فى مصر تضمن البحث فى كثير من النواحى ذات الشأن فى سياسة التعليم وتنظيمه .

وقد نال هذا التقرير عناية عظيمة فى مختلف البيئات التعليمية . وكان حقا على رجال التعليم أن يحلوه المحل اللائق به من الاهتمام .

لهذا درسه مجلس إدارة جماعة دار العلوم وأبدى فيه رأيه ثم رفعه رئيس الجماعة الأستاذ نجيب بك حتاته إلى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف فلقى من معاليه ترحيبا واغتباطا

وهذا هو رأى الجماعة ننشره فيما يلى :

هذا هو ثانى تقريرين لهما فى ميدان الاصلاح والنهوض بالتعليم فى مصر جليل الأثر . أصدرهما حضرة صاحب المعالى أحمد نجيب الهلالى باشا وزير المعارف المصرية . وكان أولهما التقرير الذى أصدره معاليه سنة ١٩٣٥ عن إصلاح التعليم الثانوى .

ويتجلى فى التقريرين من صدق النظر ، وقوة الحجة ، والهمة الوثابة ، والرغبة الصادقة فى إصلاح التعليم فى مصر . ما يدعو إلى التقدير والاعجاب . ويدل دلالة قوية على الاهتمام بخير هذا الشعب المصرى والعناية بإنهاضه إلى المستوى الرفيع ، عن طريق التعليم وإصلاحه . والثقافه وتنظيمها .

والتقرير الذى ننوه بشأنه الآن هو صفحة خالدة فى حياة الثقافة المصرية ، وكتاب تعليمى ، يرتكز على أحدث الأصول الديمقراطية ، ويرسم لمشكلات التعليم الخطط القويمة الحكيمة ، التى تذلل صعابها وتيسر طريقها . ويضع الأسس الصالحة لجعل التعليم وسيلة للحياة الديمقراطية . التى تحرص عليها الأمم الرشيدة . وعونا على إصلاح حياة الفرد والجماعة فى شتى نواحيها .

يبسط التقرير كل ذلك بأسلوب دعامته الحجة ، وسعة الاطلاع . واليقين الثابت بأن التعليم الصحيح هو أساس النهوض والاصلاح .

١ — فقد جعل التقرير الهدف الذى يتجه اليه التعليم الوصول بالناشئين إلى تلك الغايات السامية التى تحرص الأمم الديمقراطية على تحقيقها فى عصرنا الحديث

وقد تجلى الانتصار لهذه الناحية — ناحية الديمقراطية والمساواة بين أفراد الشعب — فى هذا الدفاع المجيد عن قضية المجانية فى المدارس وانها علاج لحل مشكلات اجتماعية ووسيلة من خير الوسائل لايجاد التوازن الاجتماعى بين طبقات الأمة ، وتخفيف أعباء الحياة عن كثير من أصحاب الموارد المحدودة ، وإنه لدفاع يستحق جليل الشكر .

٢ — ثم أوضح التقرير فى صراحة وقوة ما عليه حالة التعليم فى مصر وفى غيرها وما يؤخذ عليه هنا وهناك من ازدحام المناهج وتكديسها وتنافر أجزائها وتفككها وأشار إلى وجوه الاصلاح فى نظام التعليم واختيار المناهج وتقليل المواد واقتران

التعليم النظرى بالعملى . ويقيننا أن رجال المعارف سيجدون فيما أوضحه معالى الوزير خير مرشد وحافز يوجه الهمم إلى الأخذ فى أسباب الاصلاح فيضاعفون جهودهم حتى يكونوا من خير الأعوان فى إقامة دعائمه وتشييد أركانه

٣ — وقد نال التعليم الفنى من عناية معالى الوزير حظا موفورا يناسب مكانة هذا النوع من التعليم وحاجة مصر فى نهضتها الى ترقيته وتنشيطه وتوسيع ميدانه وقد عالج التقرير مواطن الضعف فى هذا النوع من التعليم وشرح أسباب الانصراف عنه وأشار الى العلاج العلمى للاقبال عليه وجعله اداة طيبة للثقافة وخدمة الامة فى جميع شئون الحياة

٤ — وكان حظ التعليم الألزامى فى التقرير كبيرا يناسب أهمية هذا التعليم فى الشعب وأثره فى تقويم الأمة . فقد أولاه مزيد العناية ووفاه حقه من البحث وشرح الداء وأرشد إلى الدواء الناجح الذى يجعل من هذا التعليم الشعبى عونا على النهوض بالجيل وانبات أبنائه فى الحضر والريف نباتا حسنا .

وان ما جاء به التقرير من وسائل العلاج لمشكلات هذا التعليم لمن خير الآراء التعليمية السديدة التى تنادى بها التربية الحديثة، بل من خير ما يوجه التعليم فى هذه المرحلة الأولى من الحياة وجهة عملية نافعة ويجعل ما يتلقاه الطفل من ثقافة نابعا من بيئته ومتمشيا مع طبيعته وكفيلا باعداده للحياة جسما وعقلا وخلقا .

وقد عالج التقرير المخاوف التى تساور فريقا من أصحاب المزارع والمصانع والمتاجر وتوجسهم الشر من تعميم التعليم لظنهم أنه سيكون سببا فى تقليل الأيدى العاملة فى الحقول . وفى صرف الأبناء عن القيام بما اعتادوا أن يزاولوه من الأعمال . وقد أوضح الحقيقة لهؤلاء ايضاحا مقنعا مطمئنا بل مشجعا على الاعتقاد بأن التعليم أجدى على أصحاب الأعمال وأكثر خيرا .

وإن الذى يسترعى الاعجاب فى ثنايا ماجاء فى التقرير عن التعليم الالزامى هو هذه الأصول التعليمية الصالحة التى شرحها معالى الوزير فى وضوح وقوة حجة . وهى كثيرة ولكن يجدر بنا أن ننوه بثلاثة منها يجب أن يعقد بتحقيقها الأمل وتتجه إلى تنفيذها الهمة وهى:

ا ــ اتخاذ المدارس الريفية وسيلة لنقل المحيط الريفى إلى مستوى أعلى . وهذه فكرة تثلج الصدور وتبعث اعجاب من ينشدون للريف المصرى للنهوض المحمود والاصلاح البعيد المدى .

والتقرير فى هذه الناحية يرى فى التعليم الالزامى وفى مدرسة الريف وسيلة لمحو الأمية ونشر الثقافة بل يتخذ منه عونا لما هو أبعد من هذا غاية وأعمق أثرا . ذلك هو أن تكون المدرسة الريفية مركزا ينبع منه الاصلاح القومى ونبراسا يهدى إلى أقوم وسائل الحياة .

ب ــ ادماج بعض المواد الثقافية والتهذيبية فى مادة اللغة العربية . وهو رأى قويم يرتكز على نظرية ربط المواد وجمعها حول محور واحد وهذا من خير ما يجعل التعليم قوى الأثر مثمرا فى تقويم الفكر وتنمية المواهب .

ج ــ ولا يسعنا ألا أن ننوه بفكرة ثالثة وهى العناية بالتعليم الدينى وبأن يكون عمليا أكثر منه نظريا . فقد درجت المدارس المختلفة على الاتجاه فى هذه المادة الى الحفظ والتلقين من غير اهتمام كبير بالناحية العملية التى تطبع فى الناشىء التمسك بشعائر الدين وآدابه وما تضمن من أخلاق فاضلة يظهر أثرها فى الحياة الاجتماعية .

٥ ــ وقد أوضح التقرير الخطة لجعل التعليم مستمرا بعد المدرسة فأشار إلى ما ينبغى أن يلحظ فى المدارس وهو أن تكون مركزا عاما للثقافة الشعبية فى دائرة المدرسة ووسيلة لتحقيق فكرة « مراكز الشباب » وكليات للشعب يتثقف فيها الكبار .

ولا بد أن يكون لهذا النظام أثره فى اتمام الثقافة ورفع مستوى الشعب من الوجوه المختلفة الحيوية والخلقية والاجتماعية .

٦ ــ ومن التوجيهات العملية النافعة التى أشار اليها التقرير هذه التوجيهات التى يجب أن تنال حظا عظيما من عناية المدرسين ونظار المدارس والمشرفين على النواحى العقلية والخلقية فيها وهى :

١ ــ شخصية المدرسة

٢ ــ سجل التلميذ

٣ — دراسة الميول الخاصة

فالاهتمام بهذه النواحى يخدم التعليم أعظم خدمة وينهض بالمجتمع نهوضا حسنا إذ يساعد على توجيه كل فرد إلى العمل الذى يوافق مواهبه واستعداده . وينبغى تحقيق ذلك فى جميع مراحل التعليم .

٧ — وقد عرض التقرير لمسائل أخرى مهمة كالامتحانات وإعداد المعلم والبعثات والصلة بين التعليم العام والتعليم الجامعى وغير ذلك مما يتصل بنظام التعليم وأصوله ويرتبط بخير الشعب وتقدمه وسعادته .

كل هذه الوسائل جديرة باهتمام رجال التعليم وبالمعاونة الصادقة فى تمحيصها واحتمال أعباء تنفيذها على خير الوجوه وأكملها .

ومما يحمد لمعالى الوزير أن اهتم فى تقريره بالمبادىء العامة التى توضح بجلاء سياسته التعليمية فى مصر وترسم لها نهجا واضحا، فطالما لوحظ على وزارة المعارف أنها تسير على غير سياسة موضوعة . فالمبادىء التى تضمنها تقرير معالى الوزير هى نهج قويم يبشر بأن الاصلاح سيسير ثابتا قويا دون أن تمسه الأهواء أو تميل به الرغبات التى لاتقوم على الأساس الصحيح .

وهناك بعض مسائل يبدو لنا فيها رأى ووجهة من النظر نشير اليها فيما يلى :

١ — أن فكرة ربط المعاهد الفنية بالتعليم العالى والجامعى والسماح للحاصلين على الشهادات الثانوية الفنية بالالتحاق بالتعليم الجامعى والعالى يخشى أن يتسع نطاقها وتؤثر فى غاية المدارس الفنية ونظامها فتصبح معاهد للاعداد للتعليم العالى لاللدخول فى الميادين العملية للحياة من أيسر الطرق ويصبح شأن المدارس الفنية شأن مدارسنا الثانوية العادية التى لايقصد أولياء الأمور من إلحاق أبنائهم بها سوى أن يستعدوا لاتمام تعليمهم العالى وبعد ذلك يطلبون الوظائف . وعلى هذا لايؤتى هذا النوع من التعليم الذى تحتاج اليه البلاد الثمرة المرجوة .

٢ — تنشيط التعليم وترغيب الشبان فيه

أوضح التقرير الأسباب التى قللت من شأن هذا النوع من التعليم ودعت إلى انصراف الشباب عنه على شدة الحاجة اليه . وارجع ذلك إلى أن مدارس هذا التعليم

منقطعة الصلة بأى نوع من أنواع التعليم العالى

وهذا حقا من الأسباب التى تصرف الشبان عن هذا التعليم غير أنه مبنى كذلك على مادرج عليه الناس فى مصر من الاعتداد بالوظائف والتعلق بأهداب مايوصل اليها من شهادات ومعاهد علمية خاصة . ونحن مع موافقتنا على عقد الصلة بين التعليم الفنى والتعليم العالى نخشى أن يكون عملنا هذا تشجيعا جديدا لفكرة الوظائف وهى الفكرة التى نحاول أن نصرف عنها عقول الشباب . وإنا نرى أن فى الحياة وأعمالها المختلفة متسعا وأن خير مانوجه به الشبان الى هذا التعليم الفنى ، إلى جانب اتصاله بالتعليم العالى، هو الحياة العملية وما فيها من مؤسسات فنية عملية يراها الشبان ماثلة ويرون أثرها واضحا ويلمسون مظاهر الاحترام والتقدير لمن يعملون فيها . ويجدون من رجال العمل ومن المصالح الحكومية المتصلة بهذه النواحى العملية خير ارشاد .

وهذه مسألة اجتماعية تملك وزارة المعارف أن تقوم بنصيبها فى توجيه الجهود اليها ، كل هذا من خير العوامل فى حفز الهمم وتوجيهها الى المعاهد التى تعد اعدادا صحيحا لهذه الحياة العاملة الناشطة المنتجة .

وقد أشار التقرير إلى ضرورة اتصال هذه المدارس الفنية بالمصانع والمزارع والمتاجر وانشائها على مقربة منها . فليكن هذا الاقتراب شاملا . واتكثر الحكومة والهيئات الاقتصادية والمالية من انشاء المؤسسات المختلفة فهى دعامة الحياة الاقتصادية وأكبر حافز يغرى الشبان بالحياة العملية . وبخوض ميادين الأعمال الانتاجية الوفيرة الخير

٣ — التعليم الدينى

مما يحمد لمعالى الوزير فى تقريره هذه العناية التى وجهها للتعليم الدينى والاهتمام بأن يكون عمليا مثمرا حين عرض للكلام على التعليم الشعبى فان للتعليم الدينى أثره العظيم فى هداية الشعب وارشاده وتوجيهه الى الخير وصرفه عن شرور كثيرة يشغل علاجها بال المصلحين .

ورجاؤنا أن تعم العناية بالدين فى جميع المدارس ولا سيما الثانوية وما فى مستواها حيث تتجاذب الشبان نوازع الشر وتساورهم الوساوس والشكوك فى العقيدة . وان تحقق ما يرمى إليه الدين من غايات سامية بأن تتخذ منه ومن شعائره وسيلة فعالة لإصلاح المجتمع .

٤ — لم تظهر فى التقرير بجلاء علاقة التعليم الأولى والإلزامى بالتعليم الابتدائى وفى رأينا أن تكون المرحلة الأولى من مراحل التعليم واحدة لجميع أبناء الشعب حتى يتحقق بذلك معنى الديمقراطية التى قام على أساسها الإصلاح المقترح فى التقرير وأن تنظم الصلة بين هذه المرحلة والمرحلة الثانوية .

٥ — وهناك مسألتان بدتا لنا فى أثناء دراسة التقرير .

أولاهما — فيما يختص بدراسة ميول التلاميذ لتوجيههم إلى النوع الذى يلائم مواهبهم .

والثانية — هى إعداد المعلم الإعداد الذى يؤهله لتنفيذ هذا الإصلاح، وهما من الدعائم التى يقوم عليها الإصلاح المنشود .

وقد يعتور تنفيذهما كثير من الصعاب واعتقادنا أن معالى الوزير قد أعد العدة لتذليل الصعاب فى هذه النواحى .

وبعد ، فإنا نحمد لمعالى الوزير مجهوده الموفق وعنايته الصادقة بالتعليم وإصلاحه ونسجل له خالص الشكر ونسأل الله أن يديم توفيقه ويجزيه عن الاهتمام بثقافة الشعب والسعى فى انهاضه أحسن الجزاء .

وأملنا فى رجال التعليم أن يتخذوا من هذا التقرير قدوة وحافزاً وأن يبذلوا الهمة فى خدمة هذا الشعب ورفع مستواه والسمو بثقافته .

وأن يمهدوا له سبل الخير حتى تتم لمصر أسباب الحياة الناهضة ووسائل الأمن والرخاء .

رئيس جماعة دار العلوم

محمد نجيب هتاته

الجاه المستعار

مسرحية شعرية عصرية ذات أربعة فصول

مجردة من العنصر النسائى

وضـــع

الاستاذ محمود غنيم مفتش النشاط المدرسى بوزارة المعارف

مقـــــدمة

بقلم المؤلف

ليست هذه الرواية حقيقة كلها ، ولا هى كلها من نسج الخيال ، بل لكل من الجانبين فيها نصيب ، فهى منتزعة من الواقع انتزاعا ، وحوادثها ــ إذا أخذ كل منها على حدة ــ مما يقع كل يوم تحت أسماع الناس وأبصارهم ، وليس للخيال فيها إلا فضل واحد هو تكوين كل متماسك من هذه الأجزاء ، وصبها فى القالب المسرحى

وقد توخينا أن يكون موضوعها عصريا لسببين الأول أن حظ المسرح من الروايات التاريخية موفور والثانى أن الحاضر أمس صلة بحيواتنا من الغابر ، واذا كان من حقنا على المسرح أن نشاهد صور الماضيين منعكسة على خشبته فمن حقنا عليه أيضا أن يكون مرآة صادقة لصورنا نحن بما يزينها من قسمات ، وما يشينها من نقائص تحتاج إلى استكمال ، أو زوائد نحتاج إلى استئصال ، على أن المسرحيات

الموضوعة ألين عجينة فى يد المصور ، وأقبل لما يراد أن يصب فيها من عبر ومواعظ وأبعد عن قدس التاريخ وحرمته ، وقلما سلم التاريخ من تجنى مؤلفى المسرحيات عليه بما يستبيحون لأنفسهم من تغيير فى مجراه ، وما يضيفون إليه من أشخاص ليس لهم وجود

ولعلنا فى هذا العصر أمس حاجة إلى ذلك الطراز من الروايات الذى يعلن عن وجودنا كمصريين ، ويبرز قوميتنا بينة المعالم واضحة التقاطيع ، ويقينى أن الوطنية الحقة تقتضينا إبراز هذه الشخصية ، وتدعونا إلى تمصير كل شىء بدل أن نعيش عالة على العصور الغابرة ، أو على غيرنا من الأمم المعاصرة

ولست أذهب مذهب القائلين بأن الشعر أقل صلاحية من غيره فى لغة التمثيل بل ربما ذهبت إلى أنه هو دون غيره لغة التمثيل ، ولعله كان كذلك من عهد الأغريق القدماء ، ولعله لم يزل كذلك فى غير العربية من اللغات ، وإذا كان حظ الروايات المسرحية من النجاح يقاس بمبلغ تأثيرها فى النفوس كان من البين أن لغة الشعر هى الأصل فى هذا الباب ، فإنها من أكبر عوامل التأثير ، وما الشعر ؟ إنه ضرب من الكلام يمتاز بجرس القافية وإيقاع الوزن وتصرف الخيال ، وكل هذه الخصائص من شأنها أن تضاعف تأثير الروايات ، وتجعل أثر الممثل فى نفوس سامعيه كالنقش على الصخرة الصماء ، لا كالكتابة على سطح الماء

كذلك لا أرى معنى لتخصيص الشعر بالروايات التاريخية دون الروايات العصرية ولعمرى إذا استقام لنا أن نجرى الشعر العربى على لسان « قمبيز » وحاجب « قمبيز » ولا عهد لهما بالعربية فضلا عن شعرها الرصين ، فكيف لا يستقيم لنا أن نجريه — فى رواية عصرية — على لسان تلميذ فى مدرسته أو موظف فى ديوانه ؟ . المسألة عندى ليست مسألة شعر أو نثر ، ولكنها مسألة الصياغة وكيفية تناول الموضوع

وإنى لقوى الإيمان بأن المسرح المدرسى — وقد أصبح له إدارة خاصة به فى وزارة المعارف — لن يؤدى رسالته حق الأداء إلا عن طريق الروايات التى تنشأ خصيصا من أجـــله ، ولكن الواقع أنه لايزال إلى الآن عالة على المسرح العام ، يستعير منه مايصلح حينا ومالا يصلح أحيانا ، بل ربما استعار منه مالا نستطيع أن نقبله كمربين إلا إذا طرحنا من الحساب صيانة أخلاق الشباب . وأقل مايقال فى

تلك المسرحيات التى يستعيرها المسرح المدرسى من المسرح العام أنها أشبه بالثوب المفصل على جسم الغير ، قلما يخلو من فضول ، ويسلم من قصر أو طول

وقبل أن أختم هذا القول أرى لزاما على أن أتوجه بخالص الشكر إلى القائمين بالأمر فى وزارة المعارف على ما أبدوا من تقدير ومابذلوا من أجر لروايتى السابقة « المروءة المقنعة » وإذا كانت تلك الرواية قد صادفت حظا غير قليل من التوفيق فإنى لأرجو ألا تكون أختها « الجاه المستعار » أقل منها توفيقا ، وما أردت بها ألا غرس الرجولة الحقة فى نفوس شبابنا الناهض ، ممثلا لهم صورة شاب طلب السعادة بغير يديه فعزت عليه ، ثم طلبها بهما فانقاد جامحها إليه ، وفى الختام أسأل الله التوفيق والسداد ؟

عرض سريـــع

— ١ —

يرتفع الستار فى الفصل الأول عن مكتب من مكاتب الحكومة يضم طائفة من صغار الموظفين الذين قطعت آمالهم المحدودة عليهم طريق التعليم فوقفوا عند منتصفه وبين هؤلاء شاب فى العشرين من عمره « خميس » نشأ فى أحضان رجل ذى ثروة وجاه « الباشا » لأن أبا الأول يشرف على أحدى ضياع الثانى ، غير أنه يستغل تلك العلاقة أسوأ استغلال ، فهو يشهرها فى يده سلاحا يرهب به زملاءه بل رؤساءه ، وينسج منها ستارا يسدله على إهماله وتهاونه فى أعماله ، على أن طيشه لا يقف به عند هذا الحد بل يخدعه عن حقيقة تلك العلاقة التى تربطه بالباشا فتسول له نفسه أنه أهل لمصاهرته فى ابنته « سعاد » معتقدا أنه ليس بينه وبين سيل العلاوات وتخطى الدرجات إلا أن يتم هذا الزواج . وستراه لا يتورع أمام زملائه عن الكذب الصراح فيزعم أن الباشا عمه وأنه خطيب ابنته ، على أن تلك العلاقة لا تلبث أن تنكشف — كما هى — فى نهاية الفصل على وضع يرزى به وينال من كرامة أبيه

— ٢ —

وفى الفصل الثانى يرتفع الستار عن منظر حفلة يقيمها الباشا احتفالا بعيد الميلاد الخامس عشر لابنته سعاد فيعتبرها خميس فرصة مواتية لإعلان خطبته ثم يكاشف بهذه الرغبة صديقه «عصاما» فينصحه هذا بالعدول مبينا له - فى رفق - أن علاقته بالأسرة علاقة ريبب لا أكثر وأنه لا يصح أن يذهب فى تأويل عطفها عليه إلى غير معناه، ثم لا يكتفى بذلك بل يبين له أن المجد الذى يصيبه عن طريق هذا الزواج - بفرض حصوله - مجد زائف، ثم يعرض عليه فكرة اختمرت فى رأسه وهى التخلى عن الوظيفة والالتحاق بكلية الطب، فيقابل خميس تلك الفكرة بالسخرية والاستهجان مستطيلا ذلك الطريق مقتنعا أن مجده الحقيقى لن يبتدىء إلا يوم يعقد ذلك القران، وسنرى أباه «الشيخ جمعه» ينضم إلى صديقه فى نصحه بالعدول فلا يزيده ذلك إلا إصراراً حتى يظن الرجل بابنه لوثة أو مسا فيرقيه فلا يؤثر ذلك كله فيه. ثم تكون الطامة حين يتقدم بالخطبة الحمقاء فتقاب العرس مأتماً وتثير ثائرة الباشا فيقصيه عن منزله ثم يضحى من أجله بأبيه، وسرعان ما يفقد وظيفته حين يتخلى عنه من كان يحميه.

— ٣ —

وفى الفصل الثالث يظهر خميس بمظهر البائس الذى يرثى له الشامت، ونرى مبلغ تأثير تلك الصدمة فى نفسه فهى تساوره فى يقظته ويهذى بها فى غفوته، وهنا تحدث المعجزة وأعنى بها الانقلاب الكلى الذى ينشىء منه خلقا جديداً لا يكاد يمت حاضره بسبب إلى ماضيه، فنراه يبادر إلى تلبية صديقه عصام فى جد خارق ومثابرة نادرة لا يقطعها بعض الشىء إلا عجزه أحيانا عما تتطلبه الدراسة من نجوم والامتحانات من رسوم. على أن هذا الانقلاب لا يقتصر عليه فحسب بل يجاوزه إلى أبيه فنرى الرجل يستمرىء نسيم الحرية حين يتشممه ويبرم بحياة القصور ويؤثر العمل الحر الطليق محتملا ألم الفاقة مضحيا فى سبيل حريته ومستقبل ابنه بأعز ما يملك حتى لتمتد يده إلى مصاغ زوجته فيباع ثم إلى ما يحويه منزله من متاع.

— ٤ —

وفى الفصل الرابع — بعد عشر سنوات — يرفع الستار عن مستشفى خاص

يديره الطبيب خميس فيكون فى إدارته مثال الطبيب الذى يقدر رسالته ويعرف واجبه الإنسانى غير حافل بالمادة رغم انهيالها عليه ، فهو شفيق بمرضاه ، إن جاءه فقير أعفاه وربما ماله واساه ، وهو يحسن استقبال رئيسه القديم « فكرى » حين يمثل بين يديه شاكيا ما جنت الوظيفة عليه من قلة مال وداء عضال ، وهو يكفل ابن زميله القديم «خليل» حين يعلم بموته ضحية واجبه. وهكذا تتم له أسباب السعادة كما يصبح أبوه من أرباب الضياع ولم يبق ما ينغص عليه إلا شيء واحد هو طيف محبوبته سعاد . وقد تغيرت نظرته إليها فأصبحت نظرة حب الروح والجمال لا نظرة الطمع إلى الجاه والمال ، وسرعان ما يواتيه جده السعيد فيسوق الباشا مريضا إليه فيبرأ على يديه من داء حار فيه الأطباء ، فيقدم إليه يد ابنته سعاد قائلا :

ليست تكافىء أموالى وإن كثرت ... من بالسلامة بعد الداء كافانى
أنقذت روحى فاقبل ما يعادلها ... سعاد والروح فى الميزان سيان

اشخاص الرواية

١ — خميس افندى موظف بوزارة الصحة .

٢ — عصام « « فى القلم الذى فيه خميس وصديقه .

٣ — خليل « « ثالث فى القلم نفسه .

٤ — فكرى « رئيس ذلك القلم .

٥ — الباشا مستشار ذو صولة وثروة واسعة .

٦ — الشيخ جمعة والد خميس وناظر ضيعة من ضياع الباشا .

٧ — عثمان حاجب القلم السابق ثم كبير ممرضى المستشفى فى الفصل الرابع .

٨ — مساعد الممرض الأول ، مغن ، قصاب ، صبى بقال ، صاحب المنزل ، ممرضون ، ونكرات مسرحية أخرى ؟

الفصل الأول

حجرة تمثل مكتباً حكومياً بها أربعة مكاتب — الرئيس وحده بالغرفة عند كشف الستار على الحائط نتيجة تبين يوما من أيام سنة ١٩٣٠

فكرى عثمانُ عثمانُ

عثمان نعمْ

فكرى هل نمتا

عثمان نعمْ نعمْ

فكرى — فى حدة — تعال لا نعمنا

أما رأيت ذلك الغبارا منتشراً فى الغرفة انتشاراً ؟

أنت هنا تعملُ فى الوَزارةْ وَزارة الصحة لا القذارةْ

عثمان — وهو ينهض —

لقد نفضتُ أرضها ياسيدى وسقفَها منذ قليلٍ بيدى

أتلك أرضٌ تُنبت الغبارا ؟ أم سقفُها ينزله أمطاراً ؟

فكرى قل لى كم الساعةُ ؟

عثمان إنها ثمانٌ وعَشَرْ

فكرى — كيف ولم أجدْ منَ الموظّفين مَنْ حَضَرْ؟

عثمان — صبراً جميلا سيدى فالله يجزى من صبر

لعلّ بعض هؤلاء قادمٌ من السفر

أو لايزال غارقا فى النوم من طول السهر

أو عاقه « الترّام »

فكرى — فى تهكم — أو مال به أو انكسر

أو قل : لعل بعضهم عافَ الحياةَ فانتحر

أو قل : لعله مضى في رحلة إلى القمر
أو راح يبغى الدفء من برد الشتاء في سقر
عثمان :ــ عذراً لهم ياسيدى إن الكريم من عذر

فكرى بعد خروج عثمان :ــ

دواوينُ شيدت للكرى والتثاؤب لحا الله أصناما وراء المكاتب
إذا أمَّهم ذو حاجة لقضائها فأقربُ منها نيلُ بعض الكواكب
هنا الوقتُ يمضى بينَ لهو وغفلة وتسويف مطلوب وإلحاح طالب
وكم سلمت أجسامُهم فتمارضوا وراغوا من الأعمال رَوْغ الثعالب
وكم رُمى الحرَّ الكريم لديهمو بغلظة ساع أو فظاظة حاجب
نَعَامٌ إذا هم أبصروا رؤساءهم سَباعٌ على الجمهور حُمر المخالب
وما حَلَمُوا فى النوم إلا برتبة تساق اليهم أو زيادة راتب
ومن زار منهم كاتباً خال نفسهُ بحضرة شاه لا بحضرة كاتب
إذا خاطب الزُّوارَ صعَّر خده وأوْمَا برأسٍ أو أشار بحاجب
ولو فتشوا عما حوته جيوبُهُ لما اغترَّ مغترٌّ بتلك المناصب

هنا يدخل خليل

خليل ــ فى مرح ــ

نعمتَ صباحاً جناب الرئيسْ أرى لك وجهاً شديدَ العُبُوسْ

فكرى ــ فى تلجلج ــ لانى أصبت ببرد خفيف

خليل متى ؟

فكرى فى عشية يوم الخميس

خليل ــ فى خبث ــ

سلمتَ لتلقَى فى الواجباتِ   وحفظ النظام علينا الدروس

يدخل عصام —

عصام   نعمتم صباحاً

خليل   نعمت صباحا   أشمسٌ تبدَّت أم البدر لاحا ؟

أعود ترنَّم فى شفتيكَ ؟   أم البوم بين الخرائب صاحا ؟

يضحك

أغالية من ثيابك فاحت ؟   أم الغاز فى ساحة الحرب فاحا ؟

يضحك

أم الصاعقات على الأرض صُبت ؟

عصام — فى وقار —   رويداً صديقى كفاك مُزاحا

أما زلت تقضى الحياة مجونا ؟   وتقطعها لذةً وانشراحا ؟

خليل — فى جد —

وكيف بربك أقضى الحياة ؟   أأُثخن قلبَى منها جراحا ؟

أأقطعها لوعةً وأنيناً ؟   وألبس فيها الحدادَ وُشاحا ؟

وما أنا والهمَّ مادمت ألقى   بدنياى خبزاً وماءً قراحاً ؟

ومن ضاق ذرعا بدنياه ضاقت   عليه وإن هى كانت براحا

إذا ضنَّ دهرى بما أبتغيه   وباتت علىَّ الليالى شحاحا

فإنى أرى فى جمال السماء   وطيب الهواء نعيما مباحا

إذا شرب الناس مرَّ الحياة   عصرت أنا منه شَهدا وراحا

وإن حاربتنى صروفُ الزمان   شهرت عليها احتقارى سلاحا

فما عاش شخص أطال الهموم   ولا مات شخص أطال المراحا

لقد جهل الغرُّ فن الحياة   وأدركته فابتسمتُ وناحا

فكرى — فى ضجر —

كفى ياخليل صدعت الرءوسْ صُنْ الوقتَ فالوقتُ كنزٌ نفيسْ

خليل سلمت لتُلقى فى الواجبات وحفظ النظام علينا الدروس

فكرى ألم يحضُر خميسٌ ؟

خليل دَعْ خميساً فلست عليه يافكرى رئيسا

بل اعْبُدهُ لتسلمَ من أذاهُ كما عبدت أوائلنا أبيسا

فكرى أَعبُدهُ ؟

خليل نعم

فكرى وكيف أعبُدهُ ؟

خليل تقوم أنت إن أتى وتُقعدهُ

وإن هفا تشكره وتحمُدهْ وإن دنا بعد الغياب موعُده

فاحفظ نشيدا حين يأتى تُنشده ثم ارقه من كل عين تحسُدُه

ضحك

فكرى من كان خلفه عظيم يُسندهُ قُبِّلَ رأسُهُ وقُبِّلَتْ يده

خليل لقد فهمت يا أخى مرادى وُقيتَ شرَّ أعين الحسَّاد

فكرى من ذلك الباشا الذى يرعاهُ ؟

خليل له نفوذٌ وغـنًى وجاهُ

فكرى لقد سمعتُ أنَّهُ سفيرٌ

خليل بل مُستشار شأنه خطير

فكرى صدقتَ فلو لم يكن ذا نفوذ لما كان عيَّنهُ بالثقافةْ

خليل وتلك الشهادة قد أصبحتْ لا تُعيِّنُ حاملها فى قرافةْ

ضحك

عصام ـ فى تبرم ـ وهل معناها غيرُها ؟

فكرى لأورِّى

عصام ولكنَّ حبَّ التهكُّمِ آفةْ

فكرى ـ لعصام ـ هل يعرف الباشا خميسا من زمن ؟

عصام لاعلم لى

فكرى إن أنت لم تعلم فمن ؟

أنت له من خيرة الأصحابِ

خليل إنهما جسمان فى إهاب

فكرى لقد سمعت أنه قريبه

خليل لالاتصدق إنه محسوبه

عصام

أقذعتمو ياقومُ فى هجائه وهْو فتًى لاشكَّ فى ذكائه

وذلك الباشا أخو أبيه ذلك ماسمعتُهُ من فيهِ

وفوق أنَّه له قريبُ فإنه لابنتِهِ خطيب

خليل ـ محتدا ـ

ليس خميس واحدا من أسرتهْ ولا خميس بخطيبٍ لابنتهْ

لكنْ أبوه ناظرٍ لضيعته إنك قد حابيته لصحبته

بالله لاتلبسهُ غيرَ حُلته ليس من الباشا ولا من عترته

لكنه ياصاح من رعيته يعتزّ بالباشا وفرط سطوته

ويستمدّ منه كل قيمته وكلُّ من صال بغير قوته

أو طلب الجاه بغير همته فإننى أطعن فى رجولته

فكرى

لقد سمعت أنه فى عُطلته يعمل للباشا بأرض ضيعته

خليل وربما نظف أرض غرفته : ضحك

عصام — فى تهكم بهما — أو شارك الطباخ فى مهمته

ضحك

خليل — فى شبه همس —

وأقسم أنه قد جاء يوماً وفوق ثيابه ماءٌ كثيرُ

فحين سألتُه ارتبك ارتباكاً وتمتم قائلا : مطرٌ غزيرُ

وكانت أشهر الأمطار ولّتْ وحلّ الصيف واشتد الهجير

ولكن كان للباشا وليدٌ له من كَتْفِ صاحبنا سرير

وكانت هذه الأمطارُ مما يجود ببذله الطفل الصغير

ضحك

هنا يدخل خميس وهو يترنم بهذه الأغنية فى استهتار جالسا على المكاتب نفسها متنقلا بينها محييا زملاءه بالاشارة . صوته يسمع من الخارج

فكرى — بعد أن يسمع صوت خميس — لقد أتى لقد أتى

خليل دَعَا الكلامَ واصمُتا

خميس — يردد —

فى سكون الليل والناسُ نيامْ تعذُبُ الذكرى ويحلو لى الغرامْ

لاجفاك النوم ياجفن حبيبى إنما النوم على جفنى حرامْ

فكرى

لقد شنّفت آذانى لقد هيجت أشجانى

عصام

لقد أزريت يا أستا ذ بالطير على البان: ضحك

خليل

يمينًا أنت فنانٌ عظيمٌ وابن فنانٍ: ضحك

فكرى

أيا عثمان أتحفه من الشاى بفنجان: ضحك

ثم يقول فى لطف بعد برهة:

قد تأخرتَ فى الصباح قليلاَ فتخوفتُ أن تكون عليلاَ

خميس — فى تحد واستهتار —

لاتخف فالغياب عندىَ طبعٌ لست أدرى لكنه تعليلا

أنا غيرُ الموظفين جميعاً إن أرادوا الخروج رمتُ الدحولا

فكرى

أنا أديت فى غيابك أعما لك حتى انتهت

خميس فعلتَ جميلا

فكرى أنا لم أُثبت الغيابَ

خميس — بعد قهقهة — أحقاً كُلُّ هذا السخاء؟ شكراً جزيلا

فكرى ما تعودتُ أن أضر زميلى

خميس — بعد قهقهة — ومتى اسْتَطَعْتَ أن تضر زميلا ؟

فكرى أنا أهوى النظام فى كل شىء

خميس وأراه علّى عبئاً ثقيلا

فكرى — يسير نحوه —

أمضِ هذا الخطاب

خميس ضعه أمامى

فكرى إنه عاجل

خميس ولست عجولا

أنا أهوى الأناة فى كل شىء فسيبقى الخطاب عمراً طويلا

ثم يمزق خميس الخطاب ويلقية فى السلة ويعود إلى الغناء « فى سكون الليل والناس نيام »

خليل أثر الصبابة فى غنائك بادٍ فمن التى تركتك رهن سهادِ ؟

خميس ـ فى تدله ـ عذراء من بيت رفيع عمادِ ملكت برقتها علّى قيادى

« يستعرض أثناء » نشأت بأحضان الرفاهة والغنى وعراقة الآباء والأجداد

« كلامه صورة » هيفاء من أود الغصون قوامها وجبينها فلق الصباح البادى

«فوتوغرافية لفتاة» وطباعها مرُّ النسيم إذا هفا وحديثها من رنة الأعواد

« جميلة ويوسعها » فإذا بدأت القول اهتفُ باسمها وإذا اختمت ختمت باسم سعادَ

« تقبيلا . . . . » وإذا صحوت فإنما هى شاغلى أو نام ليلِى فهى حُلْمُ رقادى

خليل بجمالها ياصاح أم بدلالها فتنتك أم بقوامها المياد ؟

أم باسم والدها وسطوة أهلها؟ أم بالغنى وضخامة الإيراد ؟

نفسى تحدثنى بأنك مغرم ياصاح بالأرقام والأعداد

كم عاشقٍ مادقّ يوماً قلبُه خطب الغوانَى خطبة النَّقَّاد

كم هاتف بالمجد لولا عرسُهُ ماكان معدوداً من الأمجاد

ذَلّ امرؤٌ تخذ الزواجَ حبالةً فى كفة كحبالة الصياد

خميس ماذا تقول؟ أراك تهذى دائما

خليل أغضبت من نصحى ومن ارشادى؟

خميس عجبا أمثلك أنت ينصحنى أنا؟ أنا لا أحب نصيحة الأوغاد

خليل شكراً جزيلا

خميس خل شكرك جانبا ماأنت ياصُعلوك من أندادى

فكرى صَهْ ياخميسُ

خميس أراك تهذى مثله نفد الحجا والصبر أىَّ نفاد

أتريد ويحك أن تبيت مشرَّدا وتضيع ضيعة صرخة فى واد؟

عصام لا تُعل صوتك فالمدير مجاورٌ لك

خميس لاتضيِّع ياعصام رشادى

ومَن المدير ومن سواه؟ كل مَنْ تخشَوْنه عندى كذِّر رماد

خليل من ذلك الماضى علينا حكْمُه؟ أبمصر عرشٌ غيرُ عرش فؤاد؟

فكرى عجبا أراه يعُدنا خدما له

خليل لولا تواضعه لقال: عبادى

خميس لا تستثيرونى ولا تستوجبوا غضبى فأُحرقَكُم بنار زنادى

وثقوا بأنى كلُّ شىء ها هنا الأمر أمرى والمراد مرادى

ثم يقذف بأوراق المكتب

هنا يسمع صوت سيارة

خميس — فى رعشة واضطراب سيارة الباشا لعمرى

عصام — فى دهشة — من أين جاءت؟

خميس — لست أدرى

الجميع — سيارة الباشا؟

خميس — ناهصا لمقابلته — أجل. هيا بنا على عجل

ينهض خميس لمقابلته فيدخل الباشا

الباشا — سلام عليكم

الجميع وأزكى السلامْ على حضرة المستشار الهمامْ

فكرى — وهو يقدم كرسيا — تفضلْ هنا بالجلوس

الباشا — وهو يقعد — ولكنْ لدىَّ مواعيدُ تأبى المُقام

يدخل الشيخ جمعه عقب الباشا متوكئا على عصا بجبة وقفطان غير أنيقين وبيده حقيبة وقرطاس يحملهما للباشا

الشيخ جمعة نهاركم ياسادتى سعيدُ ويومُ رؤياكم لدىّ عيدُ

خميس — معرفا — هذا أبى

فكرى — شرفت يامولانا

خليل — فى تهكم خفى — ياقمراً بعد الغياب بانا

فكرى وهو يقدم كرسيا آخر عثمان هات قهوةً ياشيخ جمعُة أقعد

الشيخ جمعة — وهو يرفض الجلوس

حاشاى أن أقعد حا شاى أمام سيدى

فى وقفتى بين يديه م شرفى وسؤددى

أنا وأهلى خَدَمٌ فى بيته المشيَّدِّ

فبيتُه بيتُ الندى يُظل كلَّ مجتد

وهْو العريقُ ابنُ العريق الجيِّدُ ابنُ الجيِّد

حسبى رضاه إنه أيمن ماحوت يدى

الباشا ـ فى عظمة — خميسُ

خميس فى اضطراب — نعم سيدى

الباشا — أين أنت؟

خميس أنا لك عبد رهين الإشارةْ

الباشا مُديرك بالأمس قد زارنى فجئت أرد إليه الزيارة

وأوصيتُه بك خيرا فلبّى فجئت أزُفّ اليك البشارة

الشيخ جمعة — بصوت عال

سألت إلهى أن ترتقى إلى أن تصير رئيس الوزارة

ثم يقول لابنه قبِّل يد الباشا وقبل رجلَهُ واشكر لمولاك الهمام فضلَهُ

واستقبل القبلة ثم اَدُع له

خميس وأبوه = ثلاث مرات الله يبقيه ويبقى نجله

ينهض الباشا للانصراف فينهض الجميع ثم يناول الشيخ جمعة خميسا الحقيبة والقرطاس .

الشيخ جمعة خذ ياخميس هذه البضاعة حتى إذاخرجت بعدساعة
فاذهب إلى منزل مولاك بها

خميس . . . . . . سمعا لمولاى وألف طاعة

ثم يتناول خميس البضاعة فى اضطراب فيقع ويذر القرطاس وبه مسحوق أبيض على ثيابه

ستار

الفصل الثانى

يرفع الستار عن بهو بمنزل الباشا معد للاحتفال بعيد الميلاد الخامس عشر لابنة الباشا « سعاد » ليس بالبهو سوى فكرى وخليل . الوقت بعد الغروب

خليل مائدة الباشا لعمرى دسمةْ

فكرى لله ما أطيب تلك الأطعمةْ

خليل كم طبق وددتُ أن ألْتَهِمَهْ لكننى خشيت عقب التُّخَمَةْ

فكرى هل بعد ذلك العشاء من سمر ؟

خليل هناك مطرب وعود ووتر

فكرى أتلك ذكرى ليلة الميلادِ ؟

خليل نعم نعم لابنته سعادِ

فكرى ليت له ألفا من الأولادِ

خليل حتى نعيش العمر فى أعيادِ

فكرى كم لابنة الباشا إذن من العُمُرْ

خليل تَمَّ لها الليلةَ خمسٌ وعَشَرْ

فكرى إذن فقد وافق شَنٌّ طَبَقَهْ ما أخلَقَ الجلف بها ما أخلقَهْ

إن خميسا سِنُّهُ عشرونا

خليل ماذا تقول ؟ ذاك لن يكونا

هذا محال ليس فى الامكان هل أقفرت مصرُ من الشبان ؟

أليس فى مصر سوى ابن جمعهْ تلك لعمرى فى الوجود بدَعَةْ

فكرى صَدقت فالباشا ولىّ نعمتهْ هيهات أن يُعطيه يد ابنتهْ

والحر لا يتخذ الأصهارا إلا أناساً مثله أحرارا

خليل أما ترى الليلةَ كيف كانا ممتَحِناً فى الحفلة امتحانا

فكرى خلناه فى المنزل راسخ القدم فجاءنا بعمل فى زىّ الخدم

خليل كم كان فى فوطته البيضاء أضحوكةً كبرى لعين الرائى

هنا يخرج خميس بفوطة بيضاء معقودة حول خصره أشبه بالخدم

خميس فكرى خليلُ أين أين أنتما ؟

فكرى وخليل نحن هنا

خميس علّكما سُررْتُما

فكرى وخليل جداً

خميس تعاليا إذن وسلّما قد سأل الباشا مرارا عنكما

الجميع يدخلون ثم يخرج بعد فترة قصيرة خميس وعصام بعد أن يخلع الأول فوطته ويدور بينهما الحوار الآتى

عصام لالا أوافق ياخميس فأعفنى أنا لا أدين بهذه الأفكار

أنا لا أدين بسؤددى إن كان عن

زوجى ظفرت به وعن أصهارى

إن تم ذلك قيل عنك : متيّمٌ صبٌّ بحب الجاه والدينار

وجعلت نفسك مضغةَ الأفواه فى
هـذا الزمان وقصـة السُّمار

خميس - فى لهفة - دعنى بهذا الحفل أعلن خطبتى
هى فرصة سنحت بَدارِ بَدار

هى ليلةٌ تم الصفاء بها وكم من ليلة أرْبَتْ على أعمار

عصام هى ليلة إن سرت فيها تابعا لهواك لم تسلم من الأكدار
هذا زواج لن يتم وخطبة محفوفة ياصاح بالأخطار
ماأنت يامغرورُ بالروح الذى يُرضى ربيبةَ نعمة ويسار

خميس الأمر أهون يا أخى مما ترى ماذاتقول؟ لقدشططت حذار
الحب يعصف بالقيود جميعها
عصفَ الرياح الهُوج بالأشجار
ويلينُ قلب أبى الفتاة بسحره ولو أنه حجر من الأحجار
لا تنسَ قلب سعادفهى تحبنى حب الرياض الخضر للامطار
لاتنس أن سعاد تسأل دائما عنى إذا أنا غبتُ بعض نهار
كم آثرتنى بالذى فى كفها والحبُّ كل الحب فى الإيثار

عصام لم لا وقد ربيتما فى منزل وقضيتما عهد الصبا فى دار ؟
لكن ذلك ليس بالحب الذى يغزو قلوب النهَّد الأبكار
إنى أسمى ذاك عطفا. والهوى والعطف يختلفان فى المعيار

خميس دعنى فى هذا الزواج وعقده ... تحقيقُ آمال لدىّ كبار
أنا إن ظفرت به بلغت المجد من ... أدنى طريق لا يكُدّ السارى
ورأيتنى أعدو إلى درجاته ... عَدْو الجياد الغرّ فى المضمار
عصام المجد ما حاكت يداك رداءه ... فالبس رداء المجد غير معار
ماذاك بالعيش السعيد وإنما ... هو — إن أردت الحقّ — شبه إسار
من عاش مشمولا بنعمة صهره ... رمقتْه زوجته بمقلة زار
نَقَضَتْ بمنزله الأمور وأبرمت ... ياللرجال لمنزل منهـــار
من صرفته يد مخضّبة هوى ... فى لجة ليست بذات قرار
خميس فى استخفاف وإذن فأين المجد؟ أين طريقه؟
عصام سر إن أردت المجد فى آثارى
إن شئت مجدا فأته من بابه ... هذى لعمرى شيمة الأحرار
قم نلتحق بالطب ويحك من غد ... فالطب أصبح قبلة الأنظار
أنا معرم بالطب من عهد الصبا ... ما عاقنى عنه سوى إعسارى
إنى رأيت الطب يمنح أهله ... ما شئت من جاه ومن إكبار
إن الطبيب هو الحياة وإنه ... فى الأرض ظل الواحد القهار
حتام نرضى بالطفيف مهانة ... ونعيش عيش موظفين صغار؟
طلّق معى تلك الوظيفة إنها ... وِزْرٌ على كتفى من الأوزار
أقسمت أنى ما بلغت براتبى ... إيراد حداد ولا نجار
خميس — فى قهقهة:
لحنٌ قديم طالما ردّدته ... حتى برمتُ بكثرة التكرار

عجبا أأرجع من جديد طالبا وأعيد ويك عهد الاستذكار
وأسير أحمل فى يمينى جدولا وحقيبةً تكتظُّ بالاسفار
هذا لعمر أبيك عار فاضح فيه صغار لى وأىّ صغار
عصام العار كل العار فيما تبتغى لكنْ طِلابُ العلم ليس بعار
خميس هذا طريق ياصديق شائك إن سرتُ فيه عَثرتُ أىَّ عِثار
أنا لو رُدِدْتُ إلى المعاهد لانقضى
عمرى هناك وما انقضت أوطارى
— فى سخرية : ولقد يهددنى هناك معلمى بالطرد آونة وبالأصفار
ولقد يعاقبنى بحبس تارة وبأكل خبز فى الغداء قُفار
عصام يكفيك سخريةً وأنت وماترى سأسير صوب طريق المختار
إنى كما تدرى أخ لك ناصح خلِق الصراحةُ والوفاء شعارى
سأشقُّ نهجىَ فى الحياة بِمَنْكِبِى وأعاف طعم النوم فى الأسحار
إن لم تكن لىَ صاحباًفصواحبى جدى وإقدامى وعزمى الوارى
خميس — ساخرا —
ستشق نهجك فى الحياة بَخٍ بَخٍ لله درُّك من فتىً مغوار
أشبهتَ « نابليون » فى وثباته بل فقتَه يا فاتح الأمصار
من كان مثلك أنت خُلِّد ذكره بصحائفٍ من فضة ونُضار

أو خُطَّ بالنور اسمُه أما أنا   فاسمى يُخطُّ بأحرف من نار
(يضحك)

يدخل الشيخ جمعة

جمعة   ماذا تقولان ؟ أتمزحانِ ؟   هل أنتما بالحفل مسرورانِ ؟

تمتعا ثم ادعوا للباشا   بالعز عاشت بنته وعاشا

ثم يلاحظ صمتهما

ما ذلك الصمت عن الكلام   هل كنتما يا بنىَّ فى خصام

عصام   كنا معاً فى جدل عقيم   ومنطقٍ ليس بمستقيمِ

أنت هنا أبو خميس وأبى   نأخذ عنك حكمة المجرِّبِ

فلنعرض الأمر إذن عليكا

جمعة   قل قل فإنى منصت إليكا

عصام   خميسٌ الليلةَ قد أرادا   أن يُعلنَ الخطبةَ من سعادا

جمعة   من هو هذا الأخرق السخيفُ ؟   هل هو إلا خادم نظيفُ !

كيف يكون الغرُّ صهرَ الباشا !   رباه أين عقله ! هل طاشا !

حاشاىَ أن أرضى بذاك حاشا

عصام   إن الفتاة غضةُ الإهابِ   وهْو حديث العهد بالشبابِ

جمعة   بل قل حديث العهد بالفطامِ   لا تذكر الزواج فى الكلامِ

ثم يلتفت لابنه   هناك عشرة من الأعوام   يا بْنِى أفق من هذه الأحلام

إذا ارتكبت هذه الحماقةْ   أذقتنى وذقتَ طعم الفاقةْ

خميس - متأففا - بالله دعـــنى يا أبى لا تُثْقل فانى أبحثُ عن مستقبلى

جمعة - لعصام - هل بالفتى مسٌّ من الشيطان ؟ أم ناله من حاسد عينان ؟

- ثم لابنه - تعال يابـــنى هاهنا أرقيكا من شر كل نظرة توذيكا

ثم يرقيه الرقية التالية باسم الاله الحافظ الجبار خالق كل مارد من نار

أسألك اللهم بالكتابِ وحرمة الأربعة الأقطابِ

بحق فضل التين والزيتونِ ثم بحق سرِّك المكنونِ

أبعد شرور الجن عن خميس واحفظه يامولاى من إبليس

احفظه يا ألله من شمهوريش وصاحبيه مُرْعِشٍ ومشمش

ومن هـــلالٍ وابنه بلال وخاله مزعزِع الجبالِ

احم خميسا من عيون الناسِ واحفظه يارب من الوُسواسِ

احفظه من دبابة الصحراء وكلِّ ما يغوص تحت الماء

أو يقذف النار من الهواء يا خالق الظلمة والضياء

بالمصـــطفى وآله ترعاهُ الله يا ألله يا اللهُ

خميس - فى تأفف - بالله دعـنى يا أبى لا تثقـل فإنـنى أبحث عن مستقبلى

دعـنى كما شئتَ أُحقِّقْ أملى لا تـكثر القول ولا تقلِّل

إنى كما عهدتنى لم أذْهَـــل من ذا الذى يعقل إن لم أعقل؟

ينصرف خميس عن المسرح ويدخل الباشا وبقية المدعوين ومعهم المغنى وفرقته. ولا بأس أن يستبدل بالأغنية الآنية سواها إذا اقتضت مصلحة الاخراج ذلك.

الباشا ـ مرحبا ـ يا مرحبا بخيرة الضيوف قدومكم يزيد فى تشريفى
ستسمعون رنةَ الدفوفِ وصوت هذا المطرب المعروفِ

***

المغنى فى سكون الليل والناس نيامْ تعذب الذكرى ويحلو لى الغرامْ
لاجفاكَ النوم ياجفن حبيبى إنما النوم على جفنى حرامْ
سكَنْت فى الليل أنفاسُ السَّحَرْ وعيونُ النجم أضناها السهَرْ
ماهفا الريح بأوراق الشجَرْ لا ولا حرَّكَ ماءً فى نَهَرْ
كل ما فى الكون غاف مستريحْ وأنا وحدى ذو جفن قريحْ

***

فى سكون الليل والناس نيام تعذب الذكرى ويحلو لى الغرام
لا جفاك النوم يا جفن حبيبى إنما النوم على جفنى حرام
إيه يامن شفَّنى وجدى به وهو غاف ذاهلٌ عن صبِّه
ما لديه خبرٌ عن حُبِّه أين قلبى المكتوى من قلبه
كل صب قال للنفس لعلْ ليت نفسى عرفت معنى الأملْ

***

فى سكون الليل والناس نيام تعذب الذكرى ويحلو لى الغرام
لا جفاكَ النوم يا جفن حبيبى إنما النوم على جفنى حرام
هكذا مرت حياتى شجنا لم تدع لى مهجة أو بدنا
قل لمن ينعم بالحب : أنا ما تقاضيتُ لقلبى ثمنا
يا حبيبى أين أحلام الشباب ؟ أين من يأسى أمانيه العذاب؟

في سكون الليل والناس نيام تعذب الذكرى ويحلولى الغرام
لا جفاك النوم يا جفن حبيبي إنما النوم على جفنى حرام

قبل المقطع الأخير يدخل خميس المسرح عليه سيما الكآبة وفى عينيه أثر الدموع منتحيا ناحية

أحد الخدم - بعد انتهاء المغنى - مولاىَ مولاىَ
نعم
قم قم معى إلى الحرمْ

الباشا ماذا جرى ؟
الخادم سيدتى سعادُ دمعُها انسجمْ
الباشا فى عيدها تبكى ؟
الخادم أجل
الباشا — وهو ينصرف — لابد من خطب ألمْ
جمعة — فى فزع — ماذا هناك ياتُرى ؟
عصام — فى حسرة — هناك خطب أدلهم
هناك ويلٌ وثبورٌ ورجومٌ وحُمَم
جمعة — ملتفتا ناحية خميس أين خميس ؟
عصام مطرقٌ إطراق من به صمم
ها هو ذا منصرفٌ عن المغنى والنغم
جمعة ما باله قد لزم م الصمت فلم ينطق بفم ؟
ثم لابنه ماذا فعلتَ ؟

خميس — فى لوعة — آه لو عرفتَ مابِى من ألم
رباه إن ركن آمالِى مالَ وانهدم
سعادُ لم تحفظْ عهود الحب أو ترع الذمم
قد طردتنى حينما خطبتها طرد الخدم
وأهدرت كرامتى يا للاباء والشمم

عصام — وهو يضرب كفا بكف
قد نفَّذَ الشقىّ ما كان عليه قد عزم

جمعة — كيف ألم يُجْد الرُّقَى ؟ ألم تُفِدْ شيئا ألم ؟
العرس صار مأتما

عصام — والآن لايغنى الندم

الباشا ـ يدخل ثائرا ـ من هو ذا الأخرق السخيف؟ هل هو إلأخادم نظيف

جمعة ـ مستعطفا ـ ماذا جرى؟ من ذا الذى تعنيه؟

الباشا — أعنى حماقة نجلك المعتوهِ
آويتُه فى منزلى لكنه لم يرع حرمة منزل يؤويه
ما كنت أعلم أنه سيعقنى من كنت أرعاه ومن أحميه
ماشأن تلك الخطبة الحمقاء؟ مَنْ أغراه؟ كيف تسربت من فيه؟

جمعة — فى ضراعة —
مولاى عذرك واضح إن ثرت ما نجلى لبنتك فى الغنى بشبيه
عجبا أيخطبها وينسى فقره والفقر أكبر سبة لذويه ؟

الباشا — أنا لاأريد لمن أصاهره غنى كم معدم ذى عزة تغنيه

إنى أريد فتىأبىّ النفس إن يخفضْه فقر نفسه تُعليه

أينال قلب سعادَ شخصٌ طالما أنست أمارات المهانة فيه؟

قد كان بالأمس القريب يعدنى مولاه . مولى المرء غيرُ حميه

فارحل بنجلك إن سمحت فاننى من أجله قررت فصل أبيه

جمعه — فى عويل والباشا منصرف —

ياللمهانة والخصاصة والطَّوى من بعد خفض العيش والترفيه

مولاى عفوكَ هبه أخطأ أوهفا ماذنْبُ والده وذنْبُ أخيه ؟

ثم يسقط مغشيا عليه

أحد الحاضرين الشيخ قد أصيب بالاغماء

ثان صُبُّوا عليه قدحا من ماء

ستار

(يتبع)

الملاح « The seafarer »

قصيدة من الأدب الأنجلوسكسونى القديم

نظمها الطالب على حمد بعد أن درس خلاصة للقصيدة ترجمها حضرة مدرس الأدب الأجنبى فى دار العلوم

ذاك لحنى الكئيب عن أحزانى	يتهاوى مبعثراً من لسانى
هو لحن الشقاء والألم المر	الذى يستكن فى وجدانى
جثم الهم فى سفينى فما يبر	ح منه مقدم السكان
كم ليال قضيتها أرقب النجم	وما ذاقت الكرى أجفانى
ناشداً بين مهلك الصخر للفلك	طريقاً يجتازه فى أمان
بينما الزمهرير ينسل فى جسـ	مى كوخز مصوب من سنان
والزفير النارى قد بخر القلـ	ب ولم يبق منه غير الدخان
ترك الصدر فارغاً موحش الآفا	ق توالى عليه سود المعانى
أيها الصاخبون فى مهرجان الشط بين الأمان والعمران	
أذكروا تائهاً عن البحر مهمو	ماً غريباً عن رقعة الأوطان
غشيتنى قذائف الزغب الطا	فى فأمسى يخافنى من يرانى
أيه يا وحشتى الكئيبة أنى	بت أهفو إلى صدى أنسان
لست أصغى إلا الى الموج صخاً	با كصوت الغضنفر الغضبان
والنحيب الحزين من عابر الطير	الذى ضل فوق هذا المكان
أيها البحر فى سبيلك ماعا	نيت من فادح الأسى أو أعانى
فى سبيل العلياء والمجد يابحر	مبيتى فى مسبح الحيتان

بى حنين الى معانقة الـ مجهول فى كل موطن وزمان
فإذا أغمض الحمام جفونى لا أبالى أى القبور احتوانى
وسواء لدى أن يرقدونى بين عشب على الثرى فينان
أو يكون الخضم قبرى اذا مت وتمسى أمواجه أكفانى

على محمد
الطالب بالسنة الثالثة بدار العلوم

فقد البـــنين

تداعبنا بين حين وآخر « قطة » جميلة وذات مرة عادت حزينة النفس كاسفة البال يكاد يقتلها الهم فلما سألت عن سبب حزنها قيل لى أنها فقدت أبناءها دفعة واحدة فأرسلت اليها هذه الأبيات .

يالحر الجوى وطول التـأسى بين جنبيك فى صباح وأمس
أفرغ الدهر فى فؤادك حزنا كاد يلقيك فى قرارة رمس
رسم الهم فى جبينك معنى لا أراه مدى الحيـاة لأنس
حيلة الأنس فى المـآتم دمع يرتجيـه لدى الخطوب فينسى

* * *

تلك يمناى فوق ظهرك تسرى وحنينى يطوف فيهـا بخمس
ليت عطفى يبل منك أواراً أرسل الحزن فى جوانح نفسى
ليس بعد البنين للعمر معنى كل يوم ـ بعد البنوة ـ نحس

* * *

عاودى الصبر فهو خير دواء ورجاء نعود منـه لأنس
عادة الدهر قسوة فأمان تتراءى وفرحة بعد بؤس

محمود عبد الرحمن شافع
دار العـــلوم

فهرس